روائع الشيخ الشعراوى

فى حوار الإيمان مع
الملاحدة والعلمانيين

فهرسة أثناء النشر / إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، إدارة الشئون الفنية

عمارة، محمد
روائع الشيخ الشعراوى «فى حوار الإيمان مع الملاحدة والعلمانيين»
نيوبوك للنشر والتوزيع
17 × 24 سم
تدمك: 9789779960005
رقم الإيداع: 9015/2019
1 ـ الإسلم ـ دفع مطاعن
2 ـ الشعراوى، محمد متولى
أ ـ العنوان

دار النشـــر: نيوبوك للنشر والتوزيع
عنوان الكتاب: روائع الشيخ الشعراوى فى حوار الإيمان مع الملاحدة والعلمانيين
الـكـاتـب: محمد عمارة
رقم الطبعة: الأولى
تاريخ الطبع: 2018

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر

يحظر طبع، أو تصوير، أو ترجمة، أو إعادة تنضيد للكتاب كاملًا أو جزئيًا، أو تسجيله على أشرطة كاسيت، أو إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على أسطوانات ضوئية، إلا بموافقة الناشر الخطية الموثقة

نيوبوك للنشر والتوزيع
6 عمارات الدفاع الوطنى حدائق القبة ـ القاهرة
تليفون: 01092673274
newbooknb@gmail.com

روائع الشيخ الشعراوى

فى حوار الإيمان مع الملاحدة والعلمانيين

دراسة وتقديم

أ. د محمد عمارة

NEW BOOK
نيو بوك للنشر و التوزيع

المحتويات

بين يدى هذا الكتاب ١١

أسرار ١٩

تمهيد ١٩

اقرأ.. بين شخصيتين ٣٥

تفسير ٥٨

سورة العصر ٥٨

تفسير سورة العصر لفضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ٥٩

تابع تفسير سورة العصر لفضيلة الشيخ/ محمد متولى الشعراوى ٨٣

تفسير سورة الهمزة للشيخ محمد متولى الشعراوى ٩٣

بطاقة حياة الشيخ / محمد متولى الشعراوى ٩٩

محاضرة الإيمان بالله ضرورة لغوية وعقلية وحياتية ١٠٨

بين يدى هذه المحاضرة ١٠٩

الإيمان بوجود الله: ضرورة لغوية وعقلية وحياتية ١١٨

الأدلة المادية على وجود الله ١٥٠

بين يدى هذا الكتاب ١٥١

تقـــديم ١٦٤
الفصل الأول: أسباب الوجود ١٦٧
الدليل الأول: الخَلقُ ١٦٧
دحض شبهات ومفتريات ١٦٩
الفصل الثانى: الدليل الثانى: الميثاق ١٨٣
الفصل الثالث: الدليل الغيبي ٢٠٠
الغيب النسبى والغيب المطلق ٢٠١
الفصل الرابع: قوانين اليقظة والنوم ٢٢١
الفصل الخامس: الأدلة المادية من القرآن ٢٣٨
الفصل السادس: وفى كل شىء دليل ٢٥٤
محاضرات فى الدين والدولة والحضارة ٢٧٠
الإسلام عقيدة ومنهج ٢٩٥
الحركة والهدف والنسِّب ٢٩٦
خصائص المنهج ٣٠٥
منهج التربية فى الإسلام ٣٢٦
مقدمة ٣٢٧
معنى التربية ٣٣٠
الكل والجزء ٣٣١
كيفية التربية ٣٤٠
ارتباط العلوم الإنسانية بالمنهجية السماوية ٣٥٢

الإسلام وحركة الحياة ٣٦٣
الإسلام والفكر المعاصر ٣٦٥
الإنسان وباقى الأجناس ٣٦٧
وقفة عقلية ٣٦٨
التعقل والتصور ٣٧٠
الرصيد الإيمانى ضرورة للإنسان ٣٧٣
إعلاء الغريزة فى الإسلام ٣٧٦
اسم الله على كل الألسنة ٣٨٠
لماذا الإيمان ضرورة عقلية ٣٨١
العلم تثبيت للإيمان ٣٨٣
قمة العبودية لله ٣٨٤
المحسن والمسىء ٣٨٧
الطعام والماء والهواء ٣٩٣
التساوى فى العبودية ٣٩٧
الشيوعية رد فعل الرأسمالية ٤٠١
حركة الحياة وقوة الخالق ٤٠٣
احترام قضية الإيمان ٤٠٤
الإسلام والأديان السابقة ٤٠٦
الإسلام والقوة والمجتمع ٤٠٩
ألوان الناس ٤١٠

التربية فى مدرسة النبوة ٤١١
شبهات القتال فى سبيل الله ٤١٣
أهل الصمود ٤١٥
مجتمع الأمن والسلام ٤١٦
مجتمع الكفاية ٤١٧
الأمن الخارجى ٤٢٠
حماية القيم ٤٢١
الله مع المجاهدين ٤٢٣
الإيمان ومعونة الله ٤٢٥
الحق والباطل ٤٢٦
البائع والمشترى والمثمن ٤٢٨
الشجاع والجبان ٤٣٠
لماذا انتشر الإسلام بالسيف ٤٣١
السيف والحرية ٤٣٣
عاملان وراء اندفاع الإسلام ٤٣٤
بوادر الخير ٤٣٦
القوة المادية ليست كل شىء ٤٣٧
الجندية لله وحده ٤٣٩
الهزيمة: مخالفة لجندية الله ٤٤٠
نداء إلى الشباب المسلم ٤٤٢

أسئلة ٤٥٩
المرأة المسلمة والطريق إلى الله ٤٦٥
مقدمة ٤٦٧
المرأة المسلمة ٤٦٨
علة وجود الزوجين ٤٧٠
مهمتها مع أرقى الكائنات ٤٧٥
مهمة المجتمع نحو المرأة ٤٧٨
أقسام الشعور ٤٧٩
الإسلام يؤمن حياة المرأة ٤٨٠
وصايا أم إياس العشر ٤٨٢
زى المرأة المسلمة ٤٨٣
شبهات وأباطيل والرد عليها ٤٩٠
بين يدى هذا الكتاب ٤٩١
بسم الله الرحمن الرحيم ٥١٤
الوحى والرسول ٥٢٨
زوجات الرسول ٥٣٩
استغلال قضايا المرأة ٥٤٣
تعدد الزوجات ٥٦٥
ثالثة الأثافي ٥٧٢
التحقيق والتطبيق ٥٨٣

القبور فى المساجد ٥٨٦
صور من الربا ٥٨٨
فريسة تضارب الرسول مع القرآن ٥٩١
ظلم العلماء ٥٩٥
الإسلام والتخلف الحضارى ٥٩٧
شبهة تناقض القرآن ٦٠٢
القرآن والعلم الحديث ٦١١
الإنسان على القمر ٦١٥
الشك فى الرسول ٦١٧
الخاتمة ٦١٩
السيرة الذاتية للأستاذ الدكتور/ محمد عمارة ٦٣٦

بين يدى هذا الكتاب

القرآن الكريم كتاب لا تنقضى عجائبه.. وأحد أوجه إعجازه أنه الكنز الذى سيظل أبد الدهر يكتشف فيه العقل المتدبر المزيد والمزيد من الأسرار، فيظل أبد الدهر مصدرًا لتثبيت أفئدة المؤمنين، كما كان كذلك عند نزوله على رسول الله ﷺ.

ولقد تبوأ الشيخ الشعراوى ـ عليه رحمة الله ـ مكانة إمام الدعاة فى واقعنا الإسلامى المعاصر، لأنه كان إمامًا من أئمة الكشف عن أسرار إعجاز القرآن الكريم..

وفى هذا الكتاب ـ الذى هو نموذج من خواطره المفسرة للقرآن الكريم ـ سيجد القارئ نماذج من هذه النظرات الكاشفة التى أبان عنها إمام الدعاة.. ونحن إذ نقدمها للقارئ إنما نبتغى بها أن تكون دعوة للاطلاع على تراث هذا الإمام العظيم فى ميدان التفسير للقرآن الكريم..

● لقد أمرنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن نستعيذ من الشيطان الرجيم عندما نشرع فى قراءة القرآن ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٨ ـ ١٠٠].

والشيخ الشعراوى يكشف للقارئ: لماذا الاستعاذة بالله من الشيطان قبل قراءة القرآن.. فيقول: «عندما تريد قراءة القرآن، وتريد أن تصفى جهاز استقبالك لتتلقى إرسال القرآن، فعليك أن تبعد تربص الشيطان بك، وتعرف الحيثيات التى قالها الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيه ـ [فى الشيطان] ـ والكلام الذى قاله هو، لكى تستقبل القرآن بصفاء، وتأخذ منه كل عطاء، وهو أن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.. فالاستعاذة

بالله من الشيطان الرجيم تحقق للقرآن مع جهاز استقبالك صفاءات الإرسال، وبعد ذلك تكون لا سامعًا بشرًا يتكلمس، ولكنك تكون سامعًا الله يتكلم»..

● فالقارئ للقرآن إنما يقوم بفريضة يتقرب بها إلى الله.. والشيطان لا يتربص إلا بالذين استقاموا ويستقيمون على صراط الله.. فهو قد فرغ من الذين انخرطوا فى المعاصى، واطمأن إلى سقوطهم فى شراك غوايته.. لذلك كان على قارئ القرآن ـ وكل سالك صراط الله المستقيم ـ أن يتنبه إلى محاولات الشيطان غوايته.. ولذلك كانت الاستعاذة بالله من الشيطان آلية من آليات التحصن من غواية الشيطان.. وسبيل من سبل إبعاده لفتح القنوات الروحية بين الإنسان وبين الله، دون عائق من غواية الشيطان ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

والشيخ الشعراوى يفسر هذه الآيات، ويكشف لماذا يأتى الشيطان للإنسان من بين يديه، ومن خلفه، ومن على يمينه، ومن على شماله.. ولماذا لا يأتيه من فوقه؟ ولا من تحته؟ فيقدم لمحة لعلها غير مسبوقة، فيقول: «قال إبليس: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ ولم يقل: سأقعد على الطريق المعوج، لأن الطريق المعوج سالكه لا يحتاج إلى شيطان، لأنه شيطان.

وقال: إنه سيأتيهم ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾. ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾. ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾. ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ وهى أربع جهات، والجهات ست.. فأين الفوق وأين التحت، ولماذا لم يذكرها؟

لأنه يعلم جيدا أن من تمثل الفوقية الإلهية والتحتية العبودية لا يتأتى له الشيطان أبدًا».

● وبعد الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، يتلو القارئ للقرآن ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.. يتلو باسم ﴿ٱللَّهِ﴾: اسم الذات الموصوفة بكل الكمالات.. فيصعد إلى حيث المعية الإلهية، طالبًا العصمة من اقتراف المعاصى.. وفى الكشف عن هذه الأسرار، يقول الشيخ الشعراوى:

«لقد عرّفنا النبى ﷺ أن ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ لا تكون فقط عند قراءة القرآن،

وإنما يجب أن تسبق كل عمل نقوم به، لأننا حين نقول ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ معنى ذلك أننا نقوم بالعمل والله فقط هو الذى يشغل بالنا، ونكون بذلك قد فزنا بالعطاء فى الدنيا والآخرة. أما إذا قمنا بالعمل وليس الله فى بالنا، نكون قد فزنا فقط بالعطاء فى الدنيا، وبتر منا عطاء الآخرة. ومن يشاء عطاء الآخرة فليقل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾.. كُلْ باسم الله، واعمل باسم الله، وتزوج باسم الله، وانجح باسم الله، وفى كل حالة قل: [باسم الله].

فما دمت قلت باسم الله، وأقبلت على عمل وفى بالك الله، فإن من المحال أن تقول بسم الله فى عمل يغضب الله. إنك حين تتعود أن تقول [بسم الله] عند كل فعل، فإنك لن تجرؤ على ارتكاب عمل سيئ.. إذا أردت أن تسرق، هل تسرق باسم الله؟! وإذا أردت أن ترتشى، هل ترتشى باسم الله؟! لا يستقيم هذا أبدًا. ستستحى من فعل مالا يرضى الله. ولن تبدأ باسم الله إلا فيما أجازه الله وأباحه..

فإذا عصيت الله بالأمس، فلا تقل هل أقول باسم الله وأنا قد عصيته!.. وتأمل الاشتقاق فى رحمن ورحيم اشتقاقهما من الرحمة، والرحمة من الرحم، والرحم مكان الجنين فى بطن المرأة. فانظر إلى أى حد يكون حنو الرحم على الجنين. ولذلك، ففى الحديث القدسى قال الرحمن: «وهذه الرحم اشتققت لها اسمًا من اسمى، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته».

إذن، فكلمة رحمن وكلمة رحيم مأخوذتان من الرحمة، من الرحم اللين، ذى الوسائد.. وعندما نقول إن فلانًا عنده رحمة، يعنى راحم، فإذا قيل رحمن تكون أيضًا صيغة مبالغة.

وحين يقول المؤمن: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فإياكم أن تفهموا أن صفات الله تتأرجح بين القوة والضعف، فمرة يكون راحمًا، ومرة يكون رحمانًا، ومرة ثالثة يكون رحيمًا، ذلك أن صيغ المبالغة إنما تأتى فى الأغيار. قالوا: فلان عالم، وفلان علاّم «أى أكثر علمًا»، وفلان علاّمة، لأن الصفات فى البشر تتغاير. لكن عند الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لا تتغاير الصفات، فلا تضعف ولا تقوى، ولكن متعلقات الصفات هى التى تكثر أو تقل..

فالله رحمن، لأنه يرحم المؤمن والكافر فى الدنيا، فرقعة الرحمة واسعة، وهو رحيم فى الآخرة، لأنه يرحم المؤمنين. إذن المبالغة لا تكون فى صاحب الحدث، وإنما فى الذى يقع عليه الحدث.

إن الصفة فى الله لا تتغير، لأن كماله غير متغير.. إن الكمال فى الله واحد، إلا أن متعلقات هذا الكمال هى التى تختلف..

فإذا قلت: بسم الله، فكأنك قلت: بسم القوى، بسم العالم، بسم الحكيم، بسم الرحمن، بسم الرحيم، بسم المهيمن، بسم القادر، بسم المقتدر. إلى آخره.

تكون هذه المجالات قد توفرت، لأنك أتيت باسم الذات الموصوفة بهذه الكمالات».

● ومن لمحات الشيخ الشعراوى حديثه عن «العقيدة».. وكيف أنها إيمان بالغيب على وجه الخصوص.. إذ هناك فرق بين «العلم» المدرك بالحواس، وبين «العقيدة» بالغيب، التى تسيطر على سلوك الإنسان، وتوجهه فى كل ميادين الحياة..

لقد طرق الشيخ الشعراوى هذا الميدان.. فتساءل:

«ما معنى كلمة عقيدة؟».. وأجاب:

«العقيدة ليست هى الفكر فى الرأس، لأن الفكر فى الرأس لا يزال محل المناقشة، وليست العقيدة ما تستقبله الحواس، لماذا؟ لأنه أمر محسوس، فأنا لا أقول: أنا أعتقد أن الكهرباء موجودة، لأن هذا أمر حسى.. العقيدة لابد أن تكون فى أمر غيبى.. لأن الأمر الحسى يستوى فيه كل الناس، أما كلمة عقيدة فإنها تأتى فى الأمور الغيبية. ولذلك العقيدة هى المقومة الأولى من مقومات الأمور. أن نؤمن بالله، الله غيب، وملائكته غيب، وكُتبه ورسله أيضًا غيب، رغم أن الكتاب نراه، والرسول نراه، لأن أنا أقول لك: آمن بهذا على أنه رسول، وأنا لم أشهد الوحى وهو نازل عليه ليقول له أنت رسول.. إنما آمنت بقلبى، بأمور غيبية، أنه نزل عليه وحى وأعطاه الكتاب، وأعطاه أمرًا لم أره..

وأنا آمنت بالملائكة، لأن الله قال: فيه ملائكة. آمنت بالجن، لأن الله قال: فيه

جن، آمنت بالرسل، لأن الله قال ذلك. آمنت بالقضاء والقدر، لأن الله قال ذلك. آمنت باليوم الآخر، لأن الله قال ذلك.

ولماذا آمنت بالله؟ لأن عقلى دلّنى على وجود ذلك الإله. إذن المسألة كلها مردودة إلى من؟ مردودة إلى العقل. إلا أن العقل احترامًا لنفسه، ما دام آمن بالله، فيجب عليه تبعًا لذلك أن يؤمن بكل ما صدر عن الله، كل ما يطلب منه، أن يوثق ذلك الأمر بأنه صدر عن الله..

● وفى التمييز بين «العلم» و«العقيدة»، يقول الشيخ الشعراوى:

«هناك فرق بين العلم والعقيدة..

علم شىء لا يعنى أنك اعتقدت به، وأنك تحمست له، وأنك سخّرت كل تصرفاتك بناء على تلك العقيدة.. فالعقيدة هى التى تحكم السلوك فى الحياة، وتكون مذكورة دائمًا، وفى بال الإنسان دائمًا، وتحكم حركة حياته.

فالأساس الأول فى المنهج المتميز، المنهج الجامع لكل خير فى حركة الحياة هو أن يوجد الإيمان أولًا، ولذلك لا يكره الله على الإيمان، لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن تصدر الأعمال عن عقيدة فيك أنت.

● ولأن القسم ـ عادة ـ إنما يكون بالشىء والأمر العظيم.. ولقد أقسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالعصر.. فلقد تحدث الشيخ الشعراوى عن مقومات العصر، التى تجعله عظيمًا يستحق أن يُقسم به الله..

وفى الكشف عن حقيقة هذه القضية، قال الشيخ الشعراوى ـ فى تفسيره سورة العصر:

«إنه لا يستقيم ولا يستقر أى عصر من العصور بمقومات إلا إذا حافظ على ما يأتى:

١ ـ أن تكون فيه عقيدة يجمعها كلمة الإيمان.

٢ ـ أن لا يكتفى بالعقيدة، بل لابد من إبراز العقيدة والتعبير عنها بعمل، وترجمتها بسلوك. لأن وجود العقيدة بدون أن تترجم إلى سلوك يبقى كلام لا قيمة له.

٣ ـ فإذا ترجمت العقيدة إلى سلوك وإلى عمل، فستتعرض لعقبات كثيرة. وما دامت تتعرض لعقبات كثيرة يبقى تحتاج إلى مقومين أيضًا، وهو أن يتواصى المملوكون بالعقيدة على الحق، بمعنى أن يكون الحق دائمًا نصب أعينهم.. فكل إنسان يوصى أخاه بالحق. وهل إيصاؤه بالحق يمنع من وجود العقبات من غير المؤمنين بالحق؟

يبقى لازم فيه صراع. هذا الصراع بين قوى الخير التى تريد الحق وقوى الشر التى تريد الباطل، يبقى إذن لابد فيه تواصى بالصبر.

فكأن منهج العمل الناجح، الذى يجعله ناجحًا دائمًا:

١ ـ عقيدة.

٢ ـ يترجم عنها إيمان.

٣ ـ عمل على وفق تلك العقيدة.

٤ ـ وبعد ذلك تواصى بالحق، لتظل هذه العقيدة ثابتة، وتظل الأعمال الخاضعة للعقيدة ثابتة.

٥ ـ ولابد أن نتواصى بالصبر على العقبات.

وعندما نستعرض تاريخنا الإسلامى، نجد ـ مثلًا ـ أن فيه عقيدة. كلنا نؤمن بالله، والملائكة، والكتب، والرسل، ونؤمن بالقضاء، ونؤمن بالقدر، ونؤمن باليوم الآخر. ومع ذلك نجد أن العصور الإسلامية تعرضت لأشياء من الهوان ومن الذلة ومن الضعف ومن الاستعباد ومن استعمار الغير لنا.

لماذا؟ لأننا، وإن كان عندنا العقيدة، إلا أن العنصر الثانى غير موجود. لو أن هذا المبدأ بكل عناصره ظل يقظًا فى حياة الأمة الإسلامية، لما أمكن أبدًا أن يكونوا فى خُسْر. فإذا رأيتهم فى خُسْر، فاعلم أن العقيدة ضعفت، أو أن العقيدة لم تترجم إلى عمل، أو أن العمل حينما تعرض لهوى النفس انصرف عن الحق، أو أنه حينما لم ينصرف عن الحق، وجاءت له مصائب من خارجه لم يتواصوا بالصبر، فخارت عزائمهم أمام أعدائهم، وحين تخور عزائمهم أمام أعدائهم ولا يوجد التواصى بالصبر والاحتمال، لابد أن المبدأ ينهار، وعدوه يتمكن منه».

هكذا أشار الشيخ الشعراوى إلى «مقومات العصر» التى تجعل منه عظيمًا.. وطبق هذا القانون وهذا المبدأ على تاريخ الأمة الإسلامية.

● وفى معنى «أُمية النبى ﷺ».. و«أُمية الأمة» التى بعث فيها هذا النبى الأمى.. أشار الشيخ الشعراوى إلى أن هذه الأمية ـ التى مثلت قطيعة مع المصادر البشرية ـ قد وقفت وراءها حكمة إحلال المصدر الإلهى محل هذه المصادر البشرية، لتمتاز رسالة هذا النبى الأمى بالمصدر الإلهى.. فكتابه وحى إلهى.. ولقد ظل كذلك، دون أن تخالط البشرية آية من آياته..

«فمحمد ـ ﷺ ـ أُمى.. وإذا كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد حرمه بالأُمية من معطيات عقول البشر، فقد وصله بالعلوية التى تعلّم البشر.. وهذا يطمئننا إلى إلهية مصدر القرآن..

وإذا قيل: ما سر الانتفاضة الكبيرة لهذه الأمة الأُمية؟ وكيف نثرت إصلاحاتها وجعلت العالم مقودًا لها؟ فالإجابة تتمثل فى صلة هذه الأمة بالماء».

* * *

تلك إشارات لنماذج قليلة من إشراقات الشيخ الشعراوى، التى جاءت فى صفحات هذا الكتاب ـ الذى يمثل صفحة من صفحات الجود الإلهى الذى حبا الله به هذا الإمام العظيم..

بقى أن نقول ـ فى التقديم لهذا الكتاب:

● إن الشيخ الشعراوى مسموع ومُشاهَد أكثر مما هو مقروء.. لذلك، كان على قارئه أن يتخيله متحدثًا، أكثر منه كاتبًا.. ففى ذلك تمام الفائدة من هذا البحر المحيط الذى تمثل فى إمام الدعاة ـ عليه رحمة الله.

والله نسأل أن ينفع بهذا الكتاب.. وأن يجعله فى ميزان حسنات شيخنا الكبير.. إنه ـ سبحانه وتعالى ـ خير مسئول وأكرم مجيب.

٥ ذى القعدة سنة ١٤٣٥هـ — دكتور

٣١ أغسطس سنة ٢٠١٤م — **محمد عمارة**

أسرار

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم، لا علم لأحد إلا ما عَلَّمت، وصلى الله على سيدنا محمد أُذن الخير التى استمعت واستقبلت آخر إرسال السماء لهدى الأرض، ولسان الصدق الذى بلَّغ عن الحق مراده من الخلق.. وبعد.

نحن نجد أن القرآن طلب من أى مؤمن حين يقرأ الآية، وقبل أن يفسرها أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، فيكون ذلك هو أول التقائه مع القرآن الكريم..

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨].

ومن المفهوم أن الاستعاذة تكون قبل أن تقرأ القرآن، لكن إذا قرأت القرآن فكيف تستعيذ بعد أن تقرأ؟!

إذن فمعنى ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ أنك إذا أردت واتجهت نيتك إلى أن تقرأ القرآن فقدم لذلك بأن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.

* * *

عداوة مسبقة

لماذا نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم؟

أن معوقات المنهج عند الإنسان المؤمن أنما هى من عمل الشيطان، والشيطان

له عداوة مسبقة مع الإنسان المتمثل فى آدم.. فإبليس هو الذى استكبر وقال لربه: خلقتنى من نار وخلقت آدم من طين.. أنا خير منه.

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾ [الإسراء: ٦١].

وكل ذلك يدل على أن العداوة مسبقة، وإذا كان الشيطان ممثلًا فى إبليس قد عصى الله بهذه الصورة، فإن الحق سبحانه وتعالى أعلن طرده من رحمته وسماه رجيما مبعدًا.. لماذا؟!

لأنه لو لم يكن رجيمًا ومبعدًا ربما قلنا هو مكلف عاص وهو عرضة أن يقبل الله التوبة منه ويغفر له ويصبح مغفورًا له، فإذا ما صار مغفورًا له حسن ظننا به.. ويريد الحق أن يقطع حسن الظن بوسوسة الشيطان.. لأنه ليس عاصيًا فقط وأنما هو عاص حكم الله عليه بأنه مطرود من الرحمة، وهو عاص أخذ على عاتقه «لأغوينهم أجمعين»..

ولكن.. انظروا إلى المنهج الإغوائى عند إبليس قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

انظروا كيف جلال القسم حتى من إبليس، لم يجد أبدًا منفذًا إلى الخلق إلا بعزة خالقهم، ولو أن الخالق أرادهم جميعًا مهديين لما استطاع الشيطان أن يتقدم باتجاهه.. ولذلك استثنى وقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ فالذى يريده الله ويصطفيه لا يكون للشيطان سلطان عليه.. فإبليس هنا قد استدرك فى شأن تعميم تأثيره..

قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [ص ٨٢، ٨٣].

هنا كلمة بعزتك يعنى خلقك، أى لو أردتهم يا ربى مهديين ما استطعت أن أغوى ـ أنا إبليس ـ واحدًا، ولكنك تركت أمر الهداية للاختيار، فالذى تريد أن تستخلفه لا دخل لى به..

هذا أول صدق من إبليس لأن «بعزتك» تدل على أنه عرف كيف يقسم، ثم قال إن طرق إغوائهم ستنحصر فيما يأتى:

ـ أنا لا أقعد لهم على طريق الشر لأن سالك طريق الشر غير محتاج إلىَّ. فنفسه تكفيه.. أنا لا أذهب إلى الخمارة ولا إلى بيت الدعارة ولا إلى الأماكن المماثلة..

ـ أنا لا أذهب إلا إلى مهابط الطاعة، فهؤلاء هم الذين أغويهم أنا فيها، يقول تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

إذن قال إبليس: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ولم يقل سأقعد على الطريق المعوج، لأن الطريق المعوج سالكه لا يحتاج إلى الشيطان لأنه شيطان.. ثم شرح الصراط المستقيم وكيف أنه سيأتيهم من الجهات الآتية:

١ ـ ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أى من أمامهم.

٢ ـ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ وتلك هى الجهة الثانية.

٣ ـ ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ وتلك هى الجهة الثالثة.

٤ ـ ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ وتلك هى الجهة الرابعة.

ولكن الجهات كما هو معروف ست جهات.. فأين الفوق وأين التحت.. ولماذا لم يذكرهما؟

لأنه يعلم جيدًا كعهدنا بعلمه أن من تمثل الفوقية الإلهية والتحتية العبودية لا يتأتى له الشيطان أبدًا.. لأنه يعيش فى مستوى علو إلهى فوقى وحضيض عبودى تحتى.. إذن لا يأتى إبليس من هاتين الجهتين أبدًا.. وأنما يأتى من أى من الجهات الأخرى.. من الأمام ومن الخلف ومن اليمين ومن اليسار.

أمة فوقية

والعجيب أنك أن نظرت إلى ما فى داخل تيارات الإلحاد فى كل عصر تجدها من هذه الجهات.. فيقولون هذا تقدمى وهذا رجعى وذاك يسارى، ونحن نقول لهم إننا لسنا فى واحدة من هؤلاء..

لسنا تقدميين نشب إلى التحلل..

ولسنا رجعيين نصير إلى ما وجدنا عليه آباءنا..

ولسنا يمينيين على عرف العصر..

ولسنا يساريين على عرف العصر..

وإنما نحن أمة محمدية فوقية.. أى كل أمورنا تأتى من فوق، ولذلك ولكى تطمئن إلى أن كل أمورك قادمة من فوق.. فإنك إذا خضعت لحكم الله فهذا يعنى أنك غير خاضع لمساويك.

إذن لا ذلة.. طالما أنك خاضع لأعلى منك، وهو خاضع للذى أنت خاضع له..

الأمة الأمية لماذا؟

إن حقيقة الفوقية هى التى جعلت الله يختار الأمة الأمية ليجعل فيها آخر صلة السماء بالأرض، ويختار من الأمة الأمية أيضًا رسولًا أميًا.. فما معنى أمى؟

أمى.. أى كما ولدته أمه، أى لم يأخذ ثقافته من مساويه، فلم يتلق ثقافته على الشرق ولا على الغرب ولا قرأ لفلان أو علان، فحصيلته الثقافية غير منسوبة لأحد.

هو أمى فيكون كل ما يأتى به معجزًا.. لأن مصدره من فوق..

إذن فالأمية شرف فيه، وأن كانت مهانة لأمثالنا.. ولو كانت الأمة التى نزل فيها القرآن أمة متحضرة كفارس أو الروم لقيل عنه أنه ارتقاءات حضارية وهبات عقلية وإصلاحات قام بها الناس ليقودوا حركة الحياة.

أنها أمة أمية بعيدة عن كل هذه التيارات.. إذن الأمية فى هذه الأمة تؤكد أمرًا.. أنها تؤكد الصلة بالسماء..

ومحمد عليه الصلاة والسلام هو الآخر أمى.. لكن.. إذا كان الله سبحانه وتعالى قد حرمه بالأمية من معطيات عقول البشر فقد وصله بالعلوية التى تعلم البشر.. وهذا يطمئننا إلى إلهية مصدر القرآن.. لأنه إذا جاء بشر بقضية ربما يأتى غيره فيتفوق عليه

بقضية أخرى.. وهكذا شأن الارتقاءات الوثنية للعقل.. هذا يخترع شيئًا ثم يأتى آخر ليزيد أو يضيف شيئًا جديدًا.. أما رسالة محمد فليس أصلها من بشر.. لأنه أمى..

إذن.. إذا قيل ما سر الانتفاضة الكبيرة لهذه الأمة الأمية وكيف نثرت إصلاحاتها وجعلت العالم مقودا لها؟ فالإجابة تتمثل فى صلة هذه الأمة بالسماء.

إصرار الشيطان

قال الشيطان: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وقال أيضًا: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ...﴾.

إذن هو مصِرَّ على أن يغويهم.. فلماذا يكون هو العاصى الوحيد.. وما دام قد عصى وحدث له ما حدث فليكن الكل عاصيًا مثله.. هكذا يمنى الشيطان نفسه.

فرق بين معصيتين

نحن أمام معصيتين.. معصية آدم.. ومعصية الشيطان..

كلاهما عصى، ولكن الفرق كبير بينهما..

فهناك فرق بين معصية فى القمة ترد الأمر على الآمر فتعارضه فى أمره له بالسجود وتعترض على من يسجد له، وبين معصية أخرى تقول إن الأمر صحيح وأن التكليف حق ولكننى ضعيف النفس لم أستطع أن أحمل نفسى على المنهج.. وهذا اللون الثانى من المعصية هو معصية من دون القمة يفتح فيها باب التوبة..

أما إبليس فقد صمم على الإغواء، فإذا امتنع عليه خلق فى معصية ينقله إلى معصية أخرى، يذهب إليه من الباب الذى يريحه، فإذا وجد إنسانًا يتشدد فى ناحية ما لا يطيل المناورة عند هذه الناحية لكنه يأتيه من ناحية أخرى.. وهنا نلمس الفارق بين معصية يوحى بها الشيطان ومعصية تصر عليها النفس ـ حتى لا نظلم الشيطان فى كل شىء ـ فإذا حدثتك نفسك بمعصية ووقفت عند المعصية ولم تغادرها فاعلم أنها من النفس لأن النفس تريد المعصية من هذا اللون فقط..

وقد لا تستطيع أن ترشو شخصًا ما بمال الدنيا لكنه ينهزم أمام نظرة امرأة.. نكون هنا بصدد معصية مخصوصة.. معصية من النفس لأن النفس تريد صاحبها عاصيًا على لون خاص يحقق لها شهوة..

لكن إبليس ليس كذلك.. إبليس يريد المؤمن عاصيًا على أى شكل من أشكال المعصية فإن عز عليه ذلك فى باب من أبواب المعصية يطرق بابًا آخر من أبوابها..

الشيطان يفضح نفسه

الشيطان رجيم مبعد.. وكلمة رجيم مبعد تحذير من الله بألا نتصور إمكانية قبول الله لتوبة الشيطان العاصى.. وتحذير من الله بألا ننخدع بما يزينه الشيطان لنا.

لقد أقسم الشيطان ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.. وبين لنا طريقته وفضح نفسه.. ولو كنا بصدد لص جاء فأخبرنا بخطة عمله وأنه سيسرقنا عن طريق كذا وكذا.. فمن الطبيعى فى الإنسان البشرى أن يأخذ حذره تجاه هذا اللص طالما عرف طريقه.

لكن الحال يختلف فى موضوع الشيطان.. رغم التنبيهات ورغم تبصيرنا بطرائقه.

لكن من غفلة الشيطان أنه دلنا على طريقه إلى ناحية المؤمن وذلك من رحمة الله بالمؤمن.

الفاعل والقابل

إذا كان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم، فعند قراءة القرآن لابد أن تبعد هذا العنصر عن نفسك أولًا.. لأن الشيطان مهمته أن يخلخل فيك منهج الله، فإذا ما استمعت إلى منهج الله يحاول الشيطان أن يبعدك عنه.

إذن لابد أن أصلح القابل لكى يتمكن الفاعل من إظهار فعله..

فلا يكفى أن تفعل فعلًا ما فمن الضرورى أن يكون الذى تفعله معه قابلًا للفعل.. أى هناك شىء اسمه الفاعل وشىء اسمه القابل.. فمثلًا: القرآن هو القرآن.. كفاعل لكن يختلف أثره فى المتلقين..

يقول تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٦].

فالقرآن فى هذه الآية فاعل لكن القابل لم يتأثر به..

ويقول تعالى فى محكم آياته: ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤].

القرآن واحد إذن، وهناك فرق بين الفاعل والقابل.. ولتوضيح المسألة على مستوى الأمور المادية نقول: إن الفاعل يكون واحدًا ولكن القابل يغير الحكم.. فأنت فى الشتاء مثلًا تنفخ فى يدك لأن الجو بارد فتعطى بعضًا من دفء نفسك ليدك الباردة.. وعندما نشرب الشاى ننفخ فيه أيضًا.. لكن.. لكى يبرد فالفاعل هنا فى الحالتين واحد لكن القابل مختلف. فلا يكفى أن نقول هذا قرآن.. إذ لابد من تصفية أداة الاستقبال للقرآن، فكيف نصفيها وكيف نمنع الشيطان؟ وهل إذا قلت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أكون قد أبعدت الشيطان؟ الإجابة: نعم.. لأنك تكون قد أوردت على نفسك قصته مع الله، وقصته مع آدم فكأنك تنفى كل خاطر يبعدك عن المنهج.. وبذلك تكون قد صفيت آلة الاستقبال للقرآن ليكون فعله كما يريد الحق سبحانه وتعالى.

مبارزة القوى

حين نستعيذ بالله من الشيطان.. فالمستعاذ به من الشيطان هو الله.

ولكن.. أليس الشيطان من خلق الله.. والإنسان كذلك من خلق الله.. ولهذا.. فإن من الممكن لخلق الله أن ينفرد بخلق الله، وتكون الغلبة لأكثرهما قوة مادام الاثنان بعيدين عن خالقهما.. أما إذا التحم أى واحد منهما بخالقه فلن يقدر الآخر عليه إلا إذا انفرد به دون خالقه ولله المثل الأعلى..

نفترض أن ولدًا صغيرًا شرد من أبيه فضربه الأولاد فالتجأ إلى أبيه الشاب القوى ووضع يده فى يده، بالطبع سيخافه الأولاد الآخرون لأنهم كانوا فى البداية فى

مواجهة قوة الصبى لكن فى الحالة الثانية أصبحت قوة الصبى من قوة من استعان به وهو الأب.. وهكذا يكون الحال إذا استعنت بالله الذى خلق الشيطان..

ونفس الشىء فى صراع المؤمنين والكافرين، فإن ظل المؤمنون موصولين بربهم فمن المحال أن يهزمهم الكفار.. لكن تكون الهزيمة إذا ابتعد المؤمنون عن الله فسيبقى عندئذ صراع القوة ضد القوة..

ولهذا إذا حدث أن انهزمت طائفة من المؤمنين على يد الكافرين نتأمل حال المؤمنين.

يقول الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦، ١٤٧].

إذن لما ينفرد خلق بخلق تكون النتيجة وفق قوة كل منهما، لكن حين يذهب واحد من الخلق إلى خالقه ويرتمى فى جانبه وفى أحضانه يتغير ميزان القوى.. لكن ماذا يكون الحال لو أن الطرفين موصولان بالله؟.. عندئذ لن يحدث بينهما شجار مادامت موصولين بالله..

وعلى هذا عندما تريد قراءة القرآن وتريد أن تصفى جهاز استقبالك لتتلقى إرسال القرآن.. فعليك أن تبعد تربص الشيطان بك وتعرف الحيثيات التى قالها الله سبحانه وتعالى فيه والكلام الذى قاله هو، لكى تستقبل القرآن بصفاء وتأخذ منه كل عطاء وهو أن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.

سخرية الشيطان

لأن الشيطان لا سلطان له على من يلتصق بالله تعالى.. سيسخر الشيطان منا جميعًا فى الآخرة.. سيذكرنا فى يوم القيامة بأنه ما كان له علينا من سلطان إلا أنه دعانا فاستجبنا له.

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٣].

أى أننا كنا على تشويه.. والمقصود بالسلطان فى هذه الآية هو القهر على فعل لا يريده من يفعل.. فلو جاء السلطان وقال اسجد لى.. يسمى هذا سلطان القهر.. لأنه قهره على أن يفعل شيئًا هو غير راض عنه، وإما أن يقنعه ليسجد طواعية، وهذا هو سلطان الحجة.. إذن فالسلطان نوعان:

ـ قهر لمن لا يريد الفعل.

ـ وإقناع يجعلك تفقبل على الفعل وأنت راضٍ.

والفرق بين السلطانين أنك فى الفعل الأول مقهور كاره وفى الفعل الثانى مقتنع.

وهكذا يحدثنا الشيطان بأنه لا يستطيع أن يقهرنا على عمل لا نريده وأنه لا يملك حجة يقنعنا بها.. المسألة هى خيبة منا.. وهكذا شأن من اتبعوا واتُبعوا.

الشيطان لماذا؟

إن ﴿أعوذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ تفتح لمن يريد أن يقرأ القرآن باب فيوضات القرآن وعطائه بأن تمنع عن النفس تلبسات الشيطان لكن.. لماذا الشيطان؟.. ولماذا أعطى له الله قدرات تلبس؟

ـ لأنه لو أن الطاعة مسألة رتيبة بدون مقاوم يفتقد الإيمان حرارته، وكذلك الإقبال على التكليف، أما إذا كان هناك شىء يغرى ويلح وتحافظ على صمودك أمامه.. فهذا هو الإيمان..

ولهذا فإن فكرة وجود الشيطان مرتبطة بالحركة الاختيارية والحركة العبادية والحركة التكليفية.

ولنأخذ من الموظف الذى يتعرض لإغراءات الرشوة مثلًا.. أن هذا الموقف يعد اختبارًا له ولمدى يقينه وإيمانه ونزاهته.

والله يريدنا كذلك، لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يثبت أن من خلقه من يذهب

إليه اختيارًا، وهو قادر ألا يذهب.. لأن هذا يعطى صفة المحبوبية للمعبود، هذه الصفة التى تجعلك تطيع وأنت قادر على أن لا تطيع.

والله المثل الأعلى.. نضرب مثلًا باثنين من خدمك، الأول صنعت له حبلًا لتشده به فى حالة ندائك له عند غضبك، والثانى يأتى طائعًا إثر ندائك.. فمن منهما تكون له صفة المحبوبية؟ الثانى بالطبع..

إذن ترك الله أمورًا تقهرك على العبودية له وهى الأمور التى لا اختيار لك فيها.. وترك أمورًا تثبت له المحبوبية التكليفية.. وهذه المحبوبية التكليفية قد ترتقى ـ عند البعض ـ إلى حالة أعلى.

* * *

ألوان المحبوبية

قد تكون المحبوبية من أجل العطاء الذى يمنحه لنا الله.. ونحن جميعًا نتطلع إلى عطائه ونريد الجنة والنعيم.. إلى آخره..

والله فى هذه الحالات يعطى للإنسان على قدر ما أتى إليه من أجله..

ومن ناحية أخرى إذا كان هناك شىء آخر سعى به الإنسان إلى ربه لغاية أسمى فسيعطيه الله ما يريد أيضًا.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وفى هذه الآية لم يقل الله تعالى: «ومن كان يرجو جنة ربه».. فالأنس هنا يكون فى اللقاء نفسه، أى الأنس هنا بالذات، لأن هذا الإنسان لم يكن يعمل للعطاءات وإنما كان يعمل للذات فقط.

إذن من يعمل للجنة سينالها..

ومن يعمل لما هو فوق الجنة سيتحقق هدفه، ولذلك جاء فى الحديث القدسى: **«أولو لم أخلق جنة ونارًا أما كنت أهلًا لأن أعبد»**.

أى هل كان لابد من خلق الجنة.. وهكذا قالت رابعة العدوية:

ـ كلهم يعبدون من خوف... إلخ..

ولذلك هى قالت: «اللهم أن كنت تعلم أنى أعبدك طمعًا فى جنتك فاحرمنى منها، وأن كنت تعلم أنى أعبدك خوفًا من نارك فأدخلنى فيها.. إننى أعبدك لأنك تستحق أن تعبد».

فوارق بين المخلوقات

حين نقيس أفراد الأنس بعضهم ببعض من ناحية.. ونقيس جنس الأنس بجنس الجن من ناحية أخرى.. نجد أن هناك فوارق فى العطاءات..

فالبشر منا كأفراد مستوون لكن لكل واحد منا فرصًا قد لا تكون عند الشخص الآخر.. ونفس الشىء بالنسبة للجن..

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان من الطين وخلق الجن من النار وبالتالى تختلف خصائص العناصر التى يتألف منها كل منهما.. لكن الجن لأنه يخلق من نار.. تكون له خصائص أشف وألطف من خصائص الإنسان، لكن الإنسان أيضًا منحه الله أشياء تجعله يسيطر على العنصر القوى.. على الجن.. فيكون الجن مسخرًا للإنسان ويكون الجن من خدامه.

إذن المسألة ليست بالعنصر.. فمواهبك لا تستفيد من العنصر.. وأنما يجرى هذا بإرادة العنصر.. بإرادة الله.

الاتصال بالجن

إذا كان الجن له خصائص أعلى فرغم ذلك يمكن الله منهم الجنس الأدنى وهو العنصر البشرى.. فثمة رجال من الأنس يعوذون برجال من الجن يجيبونهم، ويخدمونهم..

يقول تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

فماذا كانت النتيجة بعد أن نال هؤلاء الرجال من الأنس شيئًا أكثر من أفراد جنسهم وأصبح لديهم من يعطيهم أشياء أو يعمل لهم أشياء..

هل أصبحوا أحسن حالًا من بقية الناس الذين يفتقدون هذ الشيء؟.. لا.. أنهم يعيشون متعبين طوال حياتهم، ولم يكن هذا العنصر الزائد فى تكافؤ الفرص سببًا فى سعادتهم بل كان سبب شقائهم فى الدنيا..

﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾..

ويرجع ذلك إلى ضرورة وجود التوازن فى المجتمع، والتوازن فى المجتمع لا يصنع إلا إذا تكافأت الفرص.. فتظل القرية آمنة مطمئنة كل يخاف الآخر فلا يهم أحد بالاعتداء على غيره خشية أن يعتدى عليه، وهكذا يعيش الناس معًا.. أما إذا اختل التوازن فتملك رجل فى القرية ـ مثلًا ـ بندقية فى مواجهة عائلة أخرى لا تملك سلاحًا فى هذه الحالة يختل تكافؤ الفرص ويكون لأحد الناس فرصة لا تتواجد عند الآخرين.. فيبدأ الطغيان ويزداد حتى تتوفر للآخرين بندقية مماثلة.. فيعود التوازن..

أى أن تكافؤ الفرص فى الحياة هو الذى يصنع التوازن، وحين يختل هذا التكافؤ يختل التوازن بالتالى.. فالذين يستعيذون بالجن لكى ينجز لهم أعمالًا معينة.. كيف يكون حالهم؟ آه لو يعلم البشر كيف يكون حالهم؟ إنك إن نظرت إلى من يستطيع تسخير الجن لوجدته متعبًا فى شكله وماله وأولاده، كما أن حياته تكون مضطربة. رغم أنه يتحايل على الناس للحصول على بعض المال.. وفى النهاية يموت وهو فى أسوأ حال..

وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾..

ونلتقى بمفارقة تدعو إلى التأمل.. إن هذا الأنسى الذى سلك طريق تسخير الجن ينال رزقه ممن لا يقدر على تسخير الجن.. أى أن تسخير الجن لم ينفع صاحبه حتى فى الرزق.. فاقرأ جيدًا قول الله سبحانه وتعالى ـ لتعرف كيف يتوفر التوازن فى العالم ـ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ

بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

لقد كان سليمان معصومًا، هداه الله إلى تسخير الجن فى ناحية الخير فقط لأنه معصوم..

﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَرُوتَ ۚ﴾.. ملكان جاءا ليعلما الناس السحر.. فانظر إلى الأنصاف.. أنهما جاءا ليبينا لك أن الحق الأعلى قادر على أن يعطى الأدنى قوة تسخر الأعلى لكن الله سبحانه وتعالى لا يريد ذلك لأن تعلم السحر قد يفتن من يتعلمه لأنه سيحصل على فرصة ليست عند غيره.. وإذا قال أنه سيستعمل معرفته بالسحر فى الخير فقط فقل له: هذا هو قولك الآن.. لكنك لا تعرف متغيرات نفسك. فقد يأتى عليك وقت تنقم فيه على شخص ما فتستعمل معرفتك ضده أى تستعملها فى الشر..

إذن فإن الله يقدر على أن يعلم الأدنى خصوصيات تسخر له الأعلى من الجن، لكن من مصلحة الإنسان ألا يتعلم هذه الخصوصيات ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾، فقد ينتهز الإنسان هذه الفرصة ويزداد بها شرًا ويزداد بها معصية..

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾.. كلمة فلا تكفر تدل على أن كل من يتعلم هذه المسائل على سبيل استعمالها فى الخير لابد أن يعرف الفرق بين وقت التحمل الذى يتكلم فيه، والوقت الآخر الذى يملك نفسه فيه وهو وقت الأداء..

استقبال الفيوضيات

أن الحق سبحانه وتعالى يعلم مكايد الشيطان ويعلم مداخله إلى النفس البشرية ويعلم أنه سيوسوس له وسوسة تفسد كيماوية فطرته ومادامت كيماوية الفطرة فسدت، فكيف يتم استقبال القرآن؟ كيف تستقبله فطرة فاسدة؟ بالطبع لن يحدث استقبال للفيوضات.

ولهذا يقول تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨].

فما دمت استعذت من خلق إلى خالق لا يجرؤ الخلق على مجرد سماع هذه الكلمة.. فإذا سمعها الشيطان يعرف أنك تنبهت إلى من يغيثك منه، وما دمت قد تنبهت إلى من يغيثك من الشيطان، فإن الشيطان يخنس، لأنه إذا ذكر الله خنس..

إذن فالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم تحقق للقرآن مع جهاز استقبالك صفاءات الإرسال، وبعد ذلك تكون لا سامعًا بشرًا يتكلم ولكنك تكون سامعًا الله يتكلم.

يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

يقول: «انصتوا» لأن الله هو الذى يتكلم.. فعليك أن تعرف أنك إن كنت تشوش على قارئ للقرآن فأنت لا تشوش على القارئ، فليس هو الذى يقرأ.

وفى هذا السياق تأتى كلمة لسيدى جعفر الصادق رضى الله عنه وكان من أكثر آل بيت رسول الله إدراكًا لأسرار القرآن.. فلأنه قرأ القرآن مستعيذًا بالله من الشيطان الرجيم ألهمه الله أسرار فيوضات كتابه.. يقول سيدنا جعفر[1]:

«عجبت لمن خاف، ولم يفزع إلى قول الله سبحانه: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾، فإنى سمعت الله يعقبها يقول: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾.

قال جعفر رضى الله عنه: سمعت الله ولم يقل قرأت أو سمعت قارئًا..

فعلى من يستمع إلى القرآن أن ينصت لأن الله هو الذى يتكلم..

وقبل أن نقرأ القرآن علينا أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ليتم استقبال الفيوضات الإلهية.

* * *

(١) أبو عبد الله، جعفر بن محمد [٨٠ ـ ١٤٨ هـ ٦٩٩ ـ ٧٦٥م] إمام المذهب الجعفرى. وهو المذهب الفقهى للشيعة الإمامية الاثنى عشرية. والإمام السادس فى سلسة أئمتهم الاثنى عشر.

فى معية الخالق

حين يستعيذ قارئ القرآن بالله من الشيطان.. ففى ذلك إعداد للنفس حتى تستقبل كلام الله بصفاء لا يشوبه نزغ[1] من الشيطان..

وحين تستعيذ من الشيطان ـ وهو من خلق الله ـ بمن خلقه، لا يقوى الشيطان على أن تكون له مواجهة معك.. فهو لا يستطيع المواجهة إلا إذا انفرد بك دون خالقك.. أما أن تكون فى معية خالقك فلن يجرؤ الشيطان على الذهاب إليك.. فالمعية مع الحق سبحانه وتعالى يعطيها الله صورة تخلع قدرته على العاجز.

مثل من واقعة الغار

عندما كان رسول الله ﷺ فى غار ثور.. فى الهجرة.. قال له أبو بكر ـ مقررًا واقعًا ـ قال: «**لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا**»..

وكانت فجوة الغار واضحة للعيان من أسفل.

وأن كانت الواجهة تبدو مسدودة.. ولو أن أحدًا من الكفار نظر من تحت قدميه باتجاه الغار لرأى رسول الله عليه الصلاة والسلام وصاحبه..

وهذا واقع لا يمكن تكذيبه إلا بشىء إيمانى جديد..

فماذا قال رسول الله ﷺ لصاحبه أبى بكر؟ قال: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»..

وإلى ذلك تشير الآية الكريمة: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

لقد كان أبو بكر فى معية الله..

وكونه فى معية الله.. ففى ذلك رد على قول أبى بكر: «**لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا**»..

---

(١) فى الأصل: نسج. والنزغ: الدخول فى أمر لإفساده. وفى القرآن الكريم: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الإسراء: ٥٣].

فمعنى هذا الرد: أن اطمئن فإنه لو نظر أحدهم تحت قدميه لا يرانا..

وما أيسر تفسير هذا الرد.. معناه.. ما دمنا نحن فى معية الله، والله لا تدركه الأبصار.. فكيف تدركنا الأبصار..

وهكذا نرى المعية خلعت على المصاحب لها..

وبالقياس، إذا استعاذ الإنسان بالله من الشيطان، كان فى معية الله..

معارك الشيطان

ولنقرر حقيقة أخرى.

أن الشيطان لم يدخل فى معركة مع الله..

وإنما دخل فى معركة مع خلق الله..

فمن أراد أن ينفرد به الشيطان فلينعزل عن الله..

ومن أراد ألا يتمكن منه الشيطان فليدم صلته بمعية الله..

وحين تكون فى معية الله..

ولا سبيل للشيطان عليك.. وتكلم الله..

هنا.. تأتى الصفائية..

وهذا هو معنى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨].

والآن ماذا بعد أن هيأت نفسك للمدخل.. ماذا تقول؟!

تقول: **بسم الله الرحمن الرحيم**.

اقرأ.. بين شخصيتين

لأن القرآن بدأ مقروءًا باسم ربه، فكذلك يبدأ متلوًا باسم الله..

إذن المسألة واحدة..

عندما كان رسول الله فى الغار وجاء له الوحى وقال له اقرأ.. كلمة اقرأ.. تتطلب أمرًا.. أن يكون حافظًا شيئًا يقرؤه.. أو يكون أمامه مكتوب يقرؤه..

ولكنه لم يكن عنده محفوظًا ولم يكن هناك مكتوب يستطيع أن يقرأه.. فقال عليه الصلاة والسلام: ما أنا بقارئ..

يبدو رسول الله منطقيًا مع نفسه..

والحق منطقيًا مع قدرته..

قال له: اقرأ.. قال له: ما أنا بقارئ..

فلماذا كان هذا الترديد.. اقرأ.. ما أنا بقارئ..

كان ليرد على شعوذة أثارها خصوم الإسلام بعد ذلك بأربعة عشر قرنًا..

وقول الله اقرأ وقول محمد ما أنا بقارئ يدل على شخصيتين متميزتين..

ـ شخصية آمرة جازمة.

ـ وشخصية ممتنعة.

وإذا كانت المسألة مسألة شخص واحد يتكلم فى الحالتين ما انقلبت الشخصية الآمرة وأتت الشخصية الثانية الممتنعة..

نحن هنا بصدد شخصيتين متميزتين.. وكل شخصية منسجمة مع صفاتها، فالشخصية التى تقول اقرأ هى المقدرة على القراءة..

والشخصية التى تقول ما أنا بقارئ، شخصية تعرف الأسباب وقدر الأسباب وتعرف مواقعها مع الأمية.. إذن هنا شخصيتان متميزتان وليس شخصية واحدة تطرأ لها الهواجس..

والحق هنا يأمر محمدًا عليه الصلاة والسلام بالقراءة لا باسم الأسباب ولا لأنه يكتب.. وأنما لأنه سيقرأ باسم ربه.. وليس ذلك بدعا..

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١، ٢].

فالله سبحانه وتعالى القادر على الخلق من العدم هو الذى يمكن الرسول الكريم من أن يقرأ وإن لم يتعلم القراءة.. وليس ذلك بمستغرب..

﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾.

فما حاجة محمد عليه السلام إلى القراءة مما تعلم من البشر! ما دام يقرأ مما يتعلمه من خالق البشر.

مرحلتان من الكرم

لماذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾؟

لأن الإنسان حين يتعلم القراءة والكتابة من واحد مثله يكون ذلك دليلًا على كرم الله..

لكن.. حينما يكون مصدر التعلم من غير ذلك فهذا أكرم من الحالة الأولى.. فلدينا معنيان.. كريم وأكرم..

والحق سبحانه وتعالى يقول لمحمد.. أنت لا تقرأ باسم أنك تعلمت أو باسم أنك حافظ وأنما أنت تقرأ باسم ربك.. وما دام باسم ربك، فإذا أراد الله شيئًا يقول له كن فيكون.. فلا أهمية لأن تكون تعلمت أو لم تتعلم.

باسم الله

كما أن القرآن بدئ «باسم ربك» فكذلك نحن أيضًا نتلوه باسم الله.. وكلمة باسم الله ينبغى أن نتناول معناها من زاويتين:

الزاوية الأولى فيما نلحظه فى لغة البشر.. فإذا كلمك إنسان فى أمر من الأمور وأراد إقناعك به وتنفيذك له.. ستسأله: باسم من تتكلم.. ويأتى الجواب أنه يتحدث باسم مسئول ما قد يكون وكيل النيابة أو غير ذلك.. إذن.. هنا تحددت الصفة التى تقهرك على الفعل.. وأحيانًا تسمع عن أمور تقال باسم الشعب أو باسم الدستور.. هناك دائمًا مبرر لإقبال الشخص على أى عمل يعمله.. فإذا ذهبت لتحرث الأرض لكى تعطيك زرعًا.. أنت لم تخلق الأرض ولا البذرة وقد لا تكون عالمًا بعدد عناصرها.. وأنت لم تنزل الماء من السماء.. كل ما جرى أنك حرثت الأرض فحسب.. وأعملت فكرك بالطاقة المخلوقة من الله..

إذن.. ما الذى فعلته؟! لا شىء.. إذن.. حينما تُقبل على الزراعة يجب أن تقول باسم الله.. أى أنك لا تقبل على الزراعة باسمك.. لأنك لم تعمل شيئًا.. ولا قدرة لك على إرغام الأرض على أن تنبت.

وإذا أنت مثلًا ذهبت لتشعل عود ثقاب.. أنت فى الحقيقة ليست لك القدرة على شىء.. وإلا فحدثنا عن قدرتك التى ترغم العمل على أن ينفعل. إذن.. قل أنا أفعل هذا الشىء باسم الله الذى سخره لى وأمره ألا يخرج عن طاعتى..

إذا كان الأمر أمر القدرة الذاتية والطاقة الذاتية.. فلا دخل لها..

هل باستطاعتنا أن نقول للشمس اطلعى؟

هل دخل القمر فى استطاعتنا..

هل يمكن أن نقول للهواء هب عندما نريد؟

هل لنا سيطرة على الغمام؟

لكن باسم الله تتم كل هذه الأشياء.. باسم الله الذى سخر هذه الأشياء..

إذن.. فحين نقبل على أى عمل من الأعمال فلننظر إلى المنفعل لنا فى هذه الأعمال وسنجد أنه لا قدرة لنا عليها.. وما دام لا قدرة لنا عليها.. فأمامنا طريق واحد للتعامل معها.. وهو أن نتعامل معها باسم من سخرها لنا، هذا شىء.

الشىء الآخر.. أننا قد نعمل العمل وليس فى بالنا إلا الأجر المادى الذى ينتج من العمل.. وهذا هو شأن الكافرين..

ألوان من الثواب

أما المؤمن.. فعندما يأكل أو يشرب أو يمرض أو يقوم بأى عمل يقول أنا أعمل هذا العمل لأن الله أباحه لى أو أمرنى به، وبالتالى لا يقبل على العمل إلا والله ملء قلبه وباله.. وتكون النتيجة أن يستفيد المؤمن من عطائه الفائدة المباشرة ويستفيد منه ثوابًا آخر.. ثوابًا فى غير زمنه.. يأتى فى زمن ثان.. ولذلك عندما يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١].

وعندما يلمس المؤمن أن عمله الذى أداه فى الدنيا كان فى صالح نفسه، ثم منحه الله عليه جزاء آخر.. سيتوجه المؤمن إلى الله بالحمد على ما منحه.. الحمد لله أولًا.. والحمد الله أخيرًا..

عبرة الحيوانات المستأنسة

أن تقول «باسم الله» فى أى شىء.. معناها أنك دخلت على هذا الشىء بلا حول منك وبلا قوة، وإنما دخلت عليه لأن الله سخره لك، ولو لم يسخره الله لك لما استطاع أن ينفعل لك.. وانظر إلى الحيوانات على سبيل المثال.. فبعض الحيوانات يمكن استئناسها والبعض الآخر لا يمكن استئناسه، فنحن نستأنس الجمل، والفيل كذلك.. لكن لا نستطيع استئناس الثعبان.. فلماذا؟! المسألة إذن ليست مسألة قوة.. لقد ترك الله هذه الأشياء منطلقة حتى نعرف أن الله لو لم يذلل لنا الأولى لما استطعنا أن نذللها بدليل حالة الثعبان وما شابه ذلك.. يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا

عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١، ٧٢].

إذن.. ترك الله بعض الوحوش غير مستأنسة لكى يقول لنا: أننا إذا كنا قد استأنسنا بمهارتنا حيوانًا كالجمل.. فهل نستطيع ذلك بالنسبة لحية صغيرة.. لكن.. كيف ذلك ما دام الله لم يذللها لنا؟!

يقول سبحانه وتعالى فى الآية السابقة: ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا﴾.. أما ما لم يذلله فقد تركه سبحانه وتعالى لكى يلفتنا حتى لا نغتر..

فإذا دخلنا على العمل وقلنا باسم الله فكأننا دخلنا على العمل باسم من سخر لنا المنفعل..

المنفعل بين المؤمن والكافر

والمنفعل لا يتأتى للكافر فهو منفعل له أيضًا.. إذن.. ما الفرق بين من لم يقل باسم الله وهو كافر.. ومن قال باسم الله، ومن قال باسم الله وهو مؤمن؟ فكل واحد من هؤلاء تم الانفعال له.. من قال باسم الله مثاب على عملية استحضار الله فى الفعل، وكأنه لم يفعل أى فعل إلا وفى باله الله سبحانه وتعالى.. وهذا هو الفرق بين الحالتين.

خرق النواميس

كما قلنا يطلق الحق سبحانه وتعالى أشياء فى الكون لكى لا تفهم أنه ذلل لك الأشياء وهى خاضعة لك ثم انفلتت الأشياء منه.. فإن الله يستطيع أن يقبض هذه الأشياء حين يشاء.. وهذا هو الفرق بين الحق سبحانه وتعالى وبين الخلق..

الحق يطلق قانونًا ويقيده..

وأنت تطلق قانونًا ولكنك لا تستطيع أن تقيده، ولذلك عمل الحق سبحانه وتعالى نواميس فى الكون.. لكنها نواميس يرى الله خرقها فى بعض الأحايين.. وربما كان

خرقها يلفت إليه الناس، لنعرف أن الله هو الذى ينزل المطر والغيم والسحاب ويحدث أحيانًا أن يغزو الجفاف مكانًا ممطرًا دائمًا فتموت الماشية.. وتكون بذلك غير خاضعة لناموس، وأنما خاضعة لإرادة خالق الناموس، فليس معنى أن تكتمل النواميس انفلات القوانين من الله..

فالله هو خالق الناموس، وهو الذى يعرض لنا المسائل فى خرق ناموسه.. ولذلك نعرف أن كلمة «بسم الله الرحمن الرحيم» لها مدلول فى الكون، فمثلًا صورة من صور خرق الناموس فى شئون الزواج.. فنحن نعلم أن الطريق إلى أكثار الذرية هو الزواج بين رجل وامرأة.. لكن الله سبحانه وتعالى يحذرنا من الحكم على هذه المسألة..

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

أى هناك ذكر وأنثى.. فلا يكون التصرف للناموس فى هذه الحالة. وإنما التصرف لإرادة خالق الناموس..

* * *

أنى لك هذا

يعرض لنا الحق سبحانه وتعالى أشياء يتأباها العقل.. عقل الإنسان.. فعندما كفل سيدنا زكريا السيدة مريم وأصبح مسئولًا عن إحضار التموين لها.. دخل عليها ذات مرة ووجد لديها شيئًا لم يأت به فسألها: أنى لك هذا؟! والحقيقة أن الفساد فى المجتمع ناشئ من إهمال هذا السؤال: «أنى لك هذا»؟.. فإن فساد البيوت ناشئ من عدم رقابة الأم وتساؤلها عما يملكه ابنها أو بنتها.. أنها ترى ولدها فى حوزته قلم ثمين أو أشياء مادية أخرى وترى ابنتها تملك أدوات للزينة وأشياء أخرى لم تحضرها لهما ومع ذلك لا تسأل أحدًا منهما: أنى لك هذا؟.. ولو سألت هذا السؤال لاتضحت الحقيقة..

لو أن سؤال «أنى لك هذا؟» مطروح فى البيوت.. لانضبطت هذه البيوت، لو أن الزوجة رأت زوجها يحضر أجهزة غالية للبيت وهى تعرف أن مرتبه قاصر عن تلبية مثل هذه الحاجات ثم سألته «أنى لك هذا؟» لراجع تصرفاته وانصلح حال المجتمع كله..

نعود إلى مريم.. ماذا قالت ردًا على زكريا عليه السلام؟

قالت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾.

إذن الناموس شىء ورزق ربنا شىء آخر..

لكن هل اقتنع زكريا عليه السلام بالرد.. وهل سكت؟ وجاء البرهان الكبير حين دعا زكريا ربه: ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ [مريم: ٥].

أعطاه الله ولدًا وسماه يحيى.. رغم أن امرأته عاقر، وأنه بلغ من الكبر عتيًا..

لقد أراد الله أن يؤنس بشرية «مريم» حتى لا تزلزل أفكارها، فعلمها أن تقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾.. علمها ذلك لأنها ستتعرض لمحنة لم تتعرض لها امرأة فى العالم..

فالله سبحانه وتعالى ليس محكومًا بنواميس..

علمها الله ذلك حتى تردد هذا القول عندما تلد من غير ذكر..

فالله يرزق من يشاء بغير حساب.. بدون قانون..

قالت مريم ذلك.. وجرب كافلها زكريا صدق هذا القول.. حين طلب ولدًا فأعطاه الله ولدًا..

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٨، ٩].

قول زكريا بأن امرأته عاقر وأنه بلغ من الكبر عتيًا كأنه غير مصدق بأن يحدث هذا.. وهذا يبين لنا قوة إيمان الناس بالنواميس.. لكن الله سبحانه وتعالى قال له: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾.

أما مريم فقد قالت ـ كما سبق: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

ورأت مجيء يحيى..

فكل ذلك إيناس لها..

﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧].

لو لم يتمثل لها بشرًا سويًا وقال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾.

ربما ظنت مريم أن أحدًا جاء إلى جوارها وهى نائمة مثلًا..

لكن الله هنا يخرق الناموس..

ولذلك يجب أن نفطن إلى أن الله سبحانه وتعالى حينما كرر الاصطفاء فى مريم.. كرره لحكمة..

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ﴾ [آل عمران: ٤٢].

لم يقل أنه لم يصطف إلا هى.. أنها داخلة فى الاصطفاء وليس هناك ما يحول دون أن يكون غيرها مصطفى أيضًا..

ثم قال تعالى: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾..

فنجد أن الاصطفاء الأول اصطفاء قيمى أما فى الاصطفاء الثانى فهو اصطفاء على نساء العالمين.. لأنها ستلد بلا ذكر.. والقانون فى نساء العالمين أن يلدن برجل.. أما مريم هنا فقد أصبح لها قانون وحدها.. فظهر التشخيص فى القصة.. لأنك حين تجد قصة خالية من التشخيص فهذا يعنى أن الله يريد ألا تتشخص.. أى تظل بلا تشخصات حتى يكون من الممكن أن تحدث.

حول التشخص

فى سورة الكهف يقول تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف: ١٣].

لم يخبرنا المولى بعددهم.. ولذلك عاب على الناس الذين سيقولون عددهم رجمًا بالغيب، وقال للنبى بألا يستفتى فيهم منهم أحدًا.. لماذا؟.. لأن عددهم لا قيمة له فى مغزى القصة.. ولأن بلدهم لا قيمة له فى مغزى القصة، وكذلك عصر القصة..

فالتشخص فى هذه الحالة لو وجد بالأسماء لقال قائل هذه خصوصية لتلك الأسماء. فلا تتكرر فى الدنيا.. لكن حين تترك بلا تشخص سواء فى الأسماء أو فى العدد أو فى المكان.. يكون معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى يريده لنا مثلًا شرودًا فى الكون، فتأتى من أى فتية بأى أسماء فى أى زمان وفى أى مكان.. ولو شخصها بواحدة لامتنعت الفائدة فالتحديد يجعل القصة صالحة للزمان الذى حدثت فيه فقط.. ولهذا فالإبهام مربب (مزود) لفائدة القصة.

متى يكون التشخيص

لكن.. حين يريد الله التشخيص يكون معناه أن هذه القصة لا تتكرر أبدًا فحين ضرب الله مثلًا للذين كفروا بامرأة نوح وامرأة لوط، لم يقل من هى هذه المرأة.. أخبرنا أنها امرأة نبى ومع ذلك استقلت فى عقيدتها وما استطاع نبى أن يهديها..

وأيضًا فى امرأة فرعون.. لم يقل من هى.. قال فقط.. أن فرعون الذى ادعى الألوهية لم تؤمن به امرأته.. إذن المرأة هنا أيضًا لها عقيدة مستقلة..

لكن لما جاء عند مريم قال: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ [التحريم: ١٢] شخصها وقال اسم أبيها أيضًا.. لأن هذه القصة لا تتكرر.

وفى قصة أخرى مثل قصة ذى القرنين ليس من المفروض أن نطلب التعرف على

شخصيته، وألا نفسد بذلك على القرآن مراده.. لأنه لو عرفنا به القرآن وأفصح عن شخصيته لكان هذا التشخيص مانعًا للتكرار. فالله سبحانه وتعالى يريد أن نعرف عن ذى القرنين أنه رجل مُمَكَّن له فى الأرض آتاه الله ملكًا وأتاه تمكينًا.. وكيف ساس أموره وأحسن إلى الفضلاء من الناس وأعان الضعفاء..

هذا مثل شرود.. يظل مبهما طول الزمن.

باسم اللّه فى كل حال

عرفنا النبى عليه الصلاة والسلام أن: «بسم الله الرحمن الرحيم» لا تكون فقط عند قراءة القرآن.. وأنما يجب أن تسبق أى عمل نقوم به..

لأننا حين نقول «بسم الله» معنى ذلك أننا نقوم بالعمل والله فقط هو الذى يشغل بالنا.. ونكون بذلك قد فزنا بالعطاء فى الدنيا والآخرة، أما إذا قمنا بالعمل وليس الله فى بالنا نكون قد فزنا فقط بالعطاء فى الدنيا وبتر منا عطاء الآخرة.. ومن يشاء عطاء الآخرة فليقل: «بسم الله». كل باسم الله، واعمل باسم الله، وتزوج باسم الله، وانجح باسم الله. فى كل حالة قل: باسم الله..

فما دمت قلت بسم الله، وأقبلت على عمل وفى بالك الله فإن من المحال أن تقول باسم الله فى عمل يغضب الله..

أنك حين تتعود أن تقول: «بسم الله» عند كل فعل فإنك لن تجرؤ على ارتكاب عمل سيئ.. إذا أردت أن تسرق.. هل تسرق باسم الله!!. إذا أردت أن ترتشى هل ترتشى باسم الله.. لا يستقيم هذا أبدًا.. ستستحى من فعل ما لا يرضى الله.. ولن تبدأ باسم الله إلا فيما أجازه الله أو أباحه..

ولأن الله رحمن رحيم.. فإياك أن تستحى أن كنت عاصيًا الله أن تستفتح أعمالك باسم الله.. لأن الله ليس حقودًا ولا يتغير على خلقه..

فحين تعصاه لن ينفض يده منك، فأقبل عليه باسم الله وأن كنت قد عصيت الله فى شىء.. لأنه رحمن ولأنه رحيم.

الرحمن الرحيم

إذن.. فالرحمن الرحيم حيثية إقبال العاصى على أى عمل بسم الله.. فالله لا ينفعل ولا يتغير على خلقه..

وحينما شرع الله عقوبة أية معصية فمعنى ذلك أنه أذن بأن تقع..

فإذا عصيت الله بالأمس فلا تقل هل أقول باسم الله وأنا قد عصيته!.. وتأمل الاشتقاق فى رحمن ورحيم.. اشتقاقهما من الرحمة، والرحمة من الرحم.. والرحم مكان الجنين من بطن المرأة.. فانظر إلى أى حد يكون حنو الرحم على الجنين.. ولذلك ففى الحديث القدسى قال الرحمن: «وهذه الرحم اشتققت لها اسمًا من اسمى، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته».

أذن فكلمة رحمن وكلمة رحيم مأخوذتان من الرحمة، من الرحم اللين ذى الوسائد..

إذن.. فالله عطوف علينا.. فإن كنت عاصيا لا تستحى أن تهتف باسمه حين تبدأ فى أى عمل لتمنع عن نفسك الغرور بأنك قدرت عليه بذاتك.. لأنك قدرت عليه بالتسخير من الله.. ولا تحرم نفسك من الثواب على عملك فى الآخرة فيكون عملك أبتر..

بين صيغ الرحمة

عندما نقول إن فلانًا عنده رحمة.. يعنى راحمًا، فإذا قيل رحمن تكون فى صيغة مبالغة، وإذا قيل رحيمًا تكون أيضًا صيغة مبالغة..

وحين يقول المؤمن «بسم الله الرحمن الرحيم» فإياكم أن تفهموا أن صفات الله تتأرجح بين القوة والضعف فمرة يكون راحمًا، ومرة يكون رحمانًا ومرة ثالثة يكون رحيمًا.. ذلك أن صيغ المبالغة أنما تأتى فى الأغيار. قالوا: فلان عالم.. وفلان علام «أى أكثر علمًا» وفلان علامة.. لأن الصفات فى البشر تتغاير..

لكن عند الحق سبحانه وتعالى لا تتغاير الصفات فلا تضعف أو تقوى، ولكن متعلقات الصفات هى التى تكثر أو تقل.

إذا قلت: فلان أكل.. وهذه صيغة عادية.. ثم قلت «أكول أو أكال» قد يعنى ذلك أنه فى الوجبة الواحدة يأكل عددًا أكثر من الأرغفة، ومن ناحية أخرى قد تكون المبالغة فى ثبات عدد الأرغفة فى كل وجبة مع زيادة عدد الوجبات عن المألوف فى اليوم الواحد، أى قد تكون المبالغة فى تكرير الحدث العادى، وبهذا نجد أن هذه الصفات فيها تغير بينما الصفات عند الله لا تقوى ولا تضعف.

فالله رحمن.. لأنه يرحم المؤمن والكافر فى الدنيا، فرقعة الرحمة واسعة، وهو رحيم فى الآخرة لأنه يرحم المؤمنين.

إذن المبالغة لا تكون فى صاحب الحدث وأنما فى الذى يقع عليه الحدث..

فالله سبحانه وتعالى لا تكون صفاته قليلة مرة وكثيرة مرة أخرى.. أن الله لا يتغير من أجلنا، ولكننا نحن يجب أن نتغير من أجل الله.. وألا فلو كان الله يتغير لكان بمجرد أن يعصاه العبد ـ رغم ما أغدق عليه من نعم ـ يخسف به الأرض..

لكن الله ليس كذلك.. فهو حليم كما سمى نفسه.

وهو ستار يعصاه العاصى ولكنه يحب من يستر عليه.. وتلك صفات لا تتأتى من متغير على خلقه..

وما ربك بظلام للعبيد

تقول الآية الكريمة ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

يقول هواة النقاش الفلسفى ومحترفوه إن ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ حين تنفى صفة المبالغة عن أحد فهى لا تنفى عنه الصفة الأصلية. وبالتالى فإن ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ﴾ لا تنفى أن يكون ظالمًا فقط..

وعلى سبيل المثال إذا قلت إن فلانًا ليس بأكول هذا يعنى أنه آكل لكنك تكون قد نفيت المبالغة عنه.. أيضًا.. فلان ليس بعلامة.. فليس ما يمنع أن يكون عالمًا.. وهكذا..

ونعود إلى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ﴾.. فإن تفسيرها أن الله لا يبالغ فى الظلم وأن هذا لا يمنع أن يكون ظالمًا.. هذا التفسير يعنى أنك تتصور خطأ أن الصفة فى الله تتغير علوًا وضعفًا بينما الصفة فى الله لا تتغير لأن كماله غير متغير.. ولنضع أعيننا على النقاط التالية:

ـ أن الله تعالى قال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ ولم يقل: «بظلام للعبد» فحينما يملك الطاقة على أن يظلم هذا وذاك، نكون بصدد تكرار الحدث.. ومجرد التكرار يفضى إلى صفة ظلام، كما حدث فى مثال زيادة عدد وجبات الأكل فى اليوم مع ثبات حجم الوجبة الواحدة وقد سبق تفصيل هذا المثال.

ـ وإذا كان الظلم يتناسب مع القدرة.. فإن الله لو أباح لنفسه أن يكون ظالمًا فلن يكون ظالمًا فحسب لأن قدرته واسعة لا حد لها.. فلو أباح الله لنفسه هذا الأمر لصار ظلامًا حيث يتناسب الظلم مع قدرة الظالم فى هذه الحالة..

ـ أن الكمال فى الله واحد إلا أن متعلقات هذا الكمال هى التى تختلف، قد تختلف لأنها إذا تناسبت مع قدرته يكون ظلاما جدًّا.. وأن تناسبت مع العدد يكون ظالما فقط..

ـ مثال لذلك.. إذا ضرب تلميذ صغير كل تلاميذ فصله أو حتى لمسهم لمسًا خفيفًا بعصاه يقال هذا ولد ضريب.. نظرًا للكثرة.. ونقول عنه ضريبًا أيضًا إذا انفرد بولد واحد وضربه ضربًا شديدًا.. نظرا للمبالغة فى هذا الحدث غير المكرر.

الله مسخر الأشياء

فى كل أعمالنا يجب أن نبدأ قائلين: «بسم الله» لأنه هو الذى سخر لنا الأشياء، ولولا تسخيره لنا الأشياء لما استطعنا أن نسخرها لأنفسنا.. ولأن الله لا يريد أن

تكون أعمالنا هدرًا بين لنا الطريق.. فعلى المؤمن أن يقدم على كل عمل من أعماله والله فى باله.. فإن أتى المؤمن امرأته شهوة وهو ينوى الذرية الصالحة جعل الله له ثوابًا.. ودهش البعض لهذا.. أن ينال المرء شهوته ومتعته ثم يتبقى له ثواب.. وسألوا النبى عليه السلام فقارن بين حدوث هذا الأمر فى الحرام وما يستتبعه من عقوبة وبين حدوثه فى الحلال وهو ما يستتبع المثوبة.

الأعمال ذات البال والنسب الثلاث

علينا إذن أن نبدأ كل عمل ذى بال «بسم الله»..

ومعنى ذى بال: العمل الذى نقبل عليه بفكر.. لأن البال هو الفكر.. وكل عمل نقبل عليه بفكر لابد أن يبدأ بسم الله..

أما الأعمال التى تتم من غير فكر.. كأن تهجم علينا بعض الخواطر مثلًا فإن الله لا يكلفنا عنتًا بأن نقول فيها بسم الله.. فهى مغفورة لنا.. لماذا؟ لأننا لم نشغل فكرنا بالعمل قط.. لأن الإنسان منا فى كل شىء له ثلاث نسب:

النسبة الأولى نسبة ذهنية.. يعنى مثلًا أنا عطشت، فالنسبة الذهنية التى جاءت عندى أننى أريد كوب ماء.. فتكون النسبة الذهنية قد وجدت.. وعندئذ أتكلم وأقول: اعطنى كوب ماء.. وهذه هى النسبة الثانية أو النسبة الكلامية.. ولما يأتى لى كوب الماء يسمى ذلك نسبة خارجية..

أى عند الإنسان ثلاث نسب، نسبة ذهنية، ونسبة كلامية، ونسبة خارجية.. والنسبة الخارجية كما هو واضح نشأت عن النسبتين.

فإذا قلت: زيد مجتهد.. معنى هذا أن هذه الجملة وردت فى بالى قبل أن أقولها ثم قلتها.. فهل ذكرى لهذه الجملة سبب فى اجتهاد زيد أم أن زيدًا مجتهد قلت أو لم أقل؟

من ذلك يتضح أن النسبة الذهنية والكلامية ليست سببًا فى النسبة الخارجية أنما هى سبب فى الإنشاء.. فكل أمر يحدث منك بنسبة خارجية أو بنسبة كلامية ولم

يخطر لنسبة ذهنية يكون أمرًا غير ذى بال.. فكل أمر ذى بال لابد أن يمر بنسبة ذهنية أولًا.. ومعنى مرور أمر من الأمور بنسبة ذهنية معناها أنه أمر ذو بال.

أجر الكافر

إذا قال المؤمن: «بسم الله» عند القيام بعمل أخذ فائدته تسخيرًا ثم أجرًا.. أما الكافر فحين يقبل على زرع الأرض مثلًا دون أن يقول «بسم الله».. فسوف تعطيه الأرض ما ينتظره من حصاد.. لكنه لن ينال الأجر، بينما المؤمن فى هذه الحالة ينال الفائدة والأجر معًا..

إذن حين يقول قائل: إن الكافر يقبل على الأشياء بدون «بسم الله» ومع ذلك تنفعل له الأشياء.. نقول له:

أن عطاء الربوبية جعل الكون يعطى المؤمن والكافر.. ورغم أن الأشياء المسخرة تنفعل لغير المؤمن فإن قولك «بسم الله» تعتبر حركة عبودية لك تذكر بنعمة الله لك فى التسخير، وعلى هذا.. أن هى لم تزودك عن الكافر شيئًا فى الانفعال من الأشياء لك.. فقد ضمنت لك ثواب تذكرك لنعمة الله حتى لا ينقطع عطاؤها فى اليوم الذى يبقى فيه العطاء..

من الطبيعى إذن حين تقبل على أن تتفاعل مع أى شىء فى الكون أن تبدأ ذلك باسم الذى سخر لك هذا الشىء، لأنك لا تدخل على الأشياء بقدرتك لأن لا قدرة لك. وبعلمك لأن لا علم لك.. وبأن كثيرًا من الأشياء التى سخرت لك لا تدخل تحت طاقتك، ولا تدخل تحت قدرتك، ولا تخضع لأمرك، فأنت حين تقبل عليها تتذكر هبة الله لك.. فإنك أقبلت على هذا الفعل لا بقوتك ولا باقتدارك وأنما بسم الله.. بسم الله الذى سخر لك هذه الأشياء.. وعندئذ.. حين يقبل الإنسان على هذا العمل يعطيه خيره..

إذن فالحق سبحانه وتعالى يعلمنا كيف ندخل على تلاوة القرآن بسم الله الرحمن الرحيم، ويعلمنا الرسول أن ندخل على أى عمل بسم الله حتى لا يكون عملنا أبتر.

من الصفات إلى الأسماء

إذا نظرنا إلى اسم الله وجدنا أنه علم على واجد الوجود، وله صفات كثيرة وهذه الصفات أصبحت فى مجال الأسماء..

انتقلت الصفة إلى مجال الاسم ليصدق قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فكيف تنقلب الصفة إلى اسم؟

قد يوجد فلان حليم وتصفه بأنه حليم، ولكن لابد من وجود موصوف يسبقه. وتقول فلان غنى وتقول فلان حكيم.. ولكنك حين تطلق الحكمة والغنى لا ينصرف إلا لله.

فإن قلت الحكيم على إطلاقه، الرحيم على إطلاقه، الغنى على إطلاقه، فكأن الرحمة من كل راحم فى الأرض هى بعض هبّات (بتشديد الباء) الرحمة الهابطة من الله إلى الخلق، وتتسامى الرحمة فى الرحماء فى الدنيا إلى أن تلتصق بالرحيم الأعلى..

إذن فذلك هو ينبوع الرحمة، فإذا أطلقت كلمة الرحيم انصرفت إلى الله، وأن كان يوصف بها..

لكن اسم الله لا يعطى صفة وأنما يعطى ذاتًا موصوفة بصفات الكمال. وما دام علَم (بفتح اللام) على واجد الوجود، فالعلم مشخص، ومعنى مشخص أى لا يطلق على الغير.

إطلاق الأسماء على المسميات

إذا سميت ابنك محمدًا.. يكون من المفروض ألا يسمى أحد هذا الاسم لأن كلمة محمد أصبحت مشخصة، ولذلك إذا حلا لبعض الأسر أن يكرروا الاسم فى الأفراد.. يقولون: محمد الصغير، ومحمد الكبير وبعد ذلك يلجأون إلى الأوصاف الثابتة مثل محمد القصير أو محمد الطويل.. ما دام الاسم سيتكرر..

لكن اسم الله على واجد الوجود..

والناس يطلقون الأعلام على مسمياتهم، كل واحد منا يطلق علمًا على ابنه..

إذن.. فإطلاق الأسماء على المسميات أمر شائع فى دنيا الناس.. وهذا ليس بعجيب..

لكن الله حين اختار لنفسه اسمًا هو العلم.. هو الله.. قال أنه اختار اسمًا لنفسه، وأن هذا الاسم مشخص لصفات الكمال فيه، وتحدى ـ حتى الكافرين ـ أن يجترئ واحد منهم فيسمى تابعًا لهم بهذا الاسم.

اسم اللّه له وحده

نتساءل.. لماذا ـ لم[1] ـ يجترئ كافر ممن يكفرون بالله.. أن يقول: أن الله سمى نفسه هذا الاسم وأنا سأطلق على هذا الشىء اسم «الله».. لماذا لم يحدث هذا؟.. ورغم أن الكفار حريصون على تكذيب كلمة الدين.. لم تجد أحدًا يجترئ على هذا التصرف، ولذلك حين يقول سبحانه وتعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥].

يتحدى الكون كله فى أن يطلق واحد[2] منهم هذا الاسم على أى شىء.. الكافرون كثيرون، وقد هيج الله فيهم ـ بقوله هذا ـ غريزة التحدى حتى لا يقول كافر.. لم نهج ولم يطرأ على بالنا..

لقد طرأها الله على بالهم قائلًا: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ فلو كان الكافرون مؤمنين بكفرهم لجاء أحدهم قائلًا: «أنا سأسمى الله».. لكن.. لم يحدث، لم يدخل أحد فى هذه التجربة.. مما يدل على أن الكفار تعبدوا وهمًا لا يقينًا.. ولو كانوا متعبدين يقينًا غير الله لأطلقوا هذا الاسم فى حماية من عبدوه.. لكنهم لم يجدوا لهم حاميًا ليتحدى الله فى ذلك الاسم..

---

(١) غير موجودة بالأصل.

(٢) فى الأصل: واحد.

﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾.. هل هناك أحد على اسمه.. لا.. وإذا كان لم يثبت ذلك قبل نزول القرآن لأن الناس لم تتجه أو تنتبه إلى هذا، فقد نهز القرآن فيهم غريزة التحدى.. وها نحن نجد أن هذا الاسم لم يجئ من قبل ذلك ولا من بعده.. مما يدل على أن الذين يعبدون شيئًا غير الله لا يثقون فى ذلك الشىء أبدًا، ولو كانوا واثقين فى شىء على أنه إله لقالوا: نحن نقولها فى هذا، ونحن مطمئنون إلى أن هذا يحمينا مما يدل على أنهم لا يعبدون شيئًا.

لماذا اسم اللّه

حين بدأت بسم الله.. كان المعقول حين تريد فعلًا أن تبدأ باسم يعينك على فعلك..

فإن كنت تريد عملًا يحتاج إلى قوة تقول بسم القوى لكى يمدك بصفة القوة.. وإذا أردت علمًا تقوم بسم العالم، وإذا طلبت حكمة تقول بسم الحكيم، وإذا أردت قهرًا تقول بسم القهار..

لكن الأفعال لا تحتاج إلى صفة واحدة، بل تحتاج إلى صفات كثيرة.. وكل فعل ـ حتى التافه من الأفعال ـ يحتاج إلى تكاتف صفات متعددة، فهو يحتاج إلى القدرة، وإلى العلم قبل القدرة، ويحتاج إلى الحكمة والأناة والحلم.. وهى صفات كثيرة كما رأينا..

ولهذا.. وبدلًا من أن يثقل عليك الله بتكرار صفات المجالات للفعل قال لك.. قل اسم الله الذى يجمع لك كل المجالات.. فإذا قلت بسم الله.. كأنك قلت: بسم القوى، بسم العالم، بسم الحكيم، بسم الرحمن، بسم الرحيم، بسم المهيمن، بسم القادر، بسم المقتدر... إلى آخره..

تكون كل هذه المجالات توفرت لأنك أتيت بسم الذات الموصوفة بصفات الكمال.

هل هى من آيات السورة

«بسم الله الرحمن الرحيم»؟

اختلف فيها العلماء..

لكن اتفقوا على شىء.. اتفقوا على أنها آيات من القرآن.. ١١٤ آية من القرآن.. فهى من القرآن قطعًا.. وهى من سورة النمل فى صلبها.. أى هى فى سورة النمل: آية من القرآن وآية من السورة نفسها..

لكن «بسم الله» فى غير سورة النمل آيات من القرآن..

والمختلف فيه: أهى آيات من السور نفسها أو هى آيات من القرآن جاءت للابتداء فى الفاتحة، وللفصل بين السور بينما هى ليست من السور؟

بعض العلماء يرى هذا والبعض الآخر يرى الرأى الثانى.. إلا أن الحديث الذى رواه العلاء عن أبى هريرة رضى الله عنه ووجد فى صحيح مسلم رجح قول العلماء بأنها آيات من القرآن ولكنها ليست آيات من السور. وهذا هو السبب فى أنك تسمع بعض الأئمة حين ينوى للصلاة يقرأ: الحمد لله رب العالمين.. لأنه يسر بالتسمية باعتبار أن كل شىء ذى بال يبدأ بسم الله.

ويستدل بهذا الحديث ـ حديث العلاء ـ أن الحق سبحانه وتعالى قال فى حديثه القدسى: «**قسمت الصلاة بينى وبين عبدى**».

ويعنى بالصلاة فاتحة الكتاب بدليل التفسير الذى جاء بعدها وكونه يقول: «**قسمت الصلاة بينى وبين عبدى**» تدل على أن فاتحة الكتاب هى جوهر الصلاة..

يقول الحديث القدسى: «**قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين. قال الله حمدنى عبدى، فإذا قال الرحمن الرحيم قال الله اثنى على عبدى، فإذا قال العبد مالك يوم الدين قال مجدنى عبدى، وإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل فإذا قال اهدنا الصراط إلى آخره قال هذا لعبدى ولعبدى ما سأل**».

رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن حيان وابن ماجه عن أبى هريرة.

ونأتى إلى قوله «نصفين» أى نصف له ونصف لك.. أما الذى له ـ سبحانه وتعالى ـ فثلاثة هى: الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين.

الرحمن الرحيم مرة أخرى

ونقف عند كلمة «الرحمن» فقد جاءت بعد بسم الله فى «بسم الله الرحمن الرحيم».. فالحق سبحانه وتعالى بدأ بسم الله الرحمن الرحيم ونحن عندما نعمل شيئًا نبدأ «بسم الله الرحمن الرحيم»، والعمل يكون للوصول إلى غاية أو نتيجة، فإذا ما أثمرت الغاية ينبغى علينا أن نستقبل ذلك بقولنا «الحمد لله».. فالحمد هنا يأتى بخصوص الثمرة.. فإذا ما رأينا الثمرة نقول: الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين.

هذه أشياء ثلاثة.. ثلاث آيات.. ثم يجىء بعد ذلك..

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فهنا عابد ومعبود وهنا مستعين ومستعان، وتلك أشياء بين الله وبين عبده.

الرحيم

لولا رحمانية الله سبحانه وتعالى لما بقيت لنا نعمة..

إذن نحن نعيش مع معاصينا فى مجالات وجلالات الرحمن وجلالات الرحيم.. نعيش بها.. ولذلك عندما يعرض الحق سبحانه وتعالى نعمة ـ انظروا إلى دقة الأداء فى القرآن: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨].

وهذه الآية ورد صدرها فى القرآن مرتين لكن اختلف عجزها. فقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقال فى آية أخرى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

كما هو واضح أن صدر الآيتين واحد لكن العجز يختلف فيهما حسب السياق لأن سياق الآية الأولى جاء فى تجليات الرحمن، وسياق الآية الثانية جاء فى تجليات جبروت العاصى الذى يأخذ نعمة الله ويستغلها فى معصيته..

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

هذا القول ـ كما نرى ـ يناسب الظلوم الكفار..

لكن عندما يقول الله بعد ذكر النعم أنه غفور رحيم فذلك لأن النعمة تقتضى ثلاثة عناصر:

ـ عنصر هو المنعم.

ـ وعنصر هو المنعم عليه.

ـ وعنصر هو النعمة.

فمن حيث النعمة التى تتم من المنعم إلى المنعم عليه فهى كثيرة وفيرة.. وفى علم علم النحو كما نعرف نجد أن حرف «إن» هو حرف شرط لكنه يستخدم فى المشكوك فيه..

أما «إذا» فتستعمل فى الشىء المحقق..

فلماذا آثر الله سبحانه وتعالى هذا الأسلوب.. فقال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ..﴾؟ لأنه من المشكوك فيه أن يقبل أحد على عد نعم الله..

هل حاول أحد أن يعد نعم الله ويقيم لها سجلًا؟!

أن الإقبال على الإحصاء العدى غلبة ظن أما الذى لا ظن فيه فهو عدم قدرتنا على إحصاء هذه النعم.. فنحن حينما نقبل على إحصاء شىء يتوافر لدينا الظن بأن إحصاء هذا الشىء أمر مستطاع.. لكن إذا كان هذا الشىء كثيرًا جدًّا جدًّا لا نستطيع عده فلا يمكن أن نظن أننا نقدر على عده..

ومعنى هذا أننا لا نعد هذا الشىء أصلًا..

وقول الله تعالى باستدامة النعمة من المنعم على المنعم عليه دليل على أنه غفور

رحيم.. وإلا.. فلو أن الله ليس بغفور ولا رحيم، وكان ينفعل على العاصين لكان منع عنهم النعم.

إذن فمن ناحية المنعم عليه هو ظلوم كفار ولكن من ناحية المنعم هو غفور رحيم.. وهكذا غطت غفور رحيم ظلوم كفار ومن هذا المنطلق وبهذا المنطق ينبغى تناول فاتحة الكتاب[1].

(١) سبق نشر هذا الجزء سنة ١٩٨٠ بمكتبة القرآن ـ إعداد الأستاذ عماد عبد اللطيف.

تفسير

سورة العصر

تفسير سورة العصر

لفضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى

أحمدك ربى وأستعينك، وأصلى وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.. وبعد:

فقد انتهينا فى لقائنا السابق، من خواطرنا حول سورة التكاثر، وقلنا أن السورة ختمت بما يوحى به.. التكاثر، من تنافس على خير الحياة، وما يسعد فى الدنيا، ظنًا للمسلم أو للإنسان أن الدنيا هى كل شىء، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يردنا عن التكاثر، ليجعله تنافسًا فى الخير، ومسابقة إلى النعيم الباقى، فانتهت السورة عند قوله سبحانه «ثم لتسألن يومئذ عن النعيم».. النعيم الذى طلبتموه بالتكاثر، وطلبتموه بالتنافس، وما دام هذا النعيم نعيم يسأل عنه ويدخل الإنسان بسببه فى منطقة الحساب أولًا، ثم منطقة الوزن ثانيًا، ثم منطقة الجزاء على ذلك الوزن، فوجب أن يحتاط الإنسان لنفسه بأن لا يتكاثر إلا فى شىء يكون له منه الخير بعد الدنيا، أى فى الحياة الباقية. ولا يجب أن يتكاثر على شىء إلا إذا وثق بأن ذلك الشىء يرجح كفة ميزانه يوم لقاء الله، وحينئذ يكون سؤاله عن النعيم لا سؤال تعنييف بل سؤال تشريف. لأن الحق سبحانه وتعالى وضع للناس طريقًا مستقيمًا لا تتفرق السبل فيه بالإنسان، بل يتوحد فيه السبيل إلى الحق. وهذا الطريق المستقيم، كما عرفنا، هو أقصر المسافات بين نقطتين، وإن أردت أن تصل إلى الله وإلى النعيم الذى له حساب راجح عند الله، فالتزم منهج الله وخط الله، وهو الصراط المستقيم الذى يوصلك إليه.

بعد ذلك كان ولابد أن يحدد الحق أن الإنسان بالنسبة لواقعه فى الحياة، وبالنسبة لحركته فى تلك الحياة، لا يعد نهايتين: النهاية الأولى أن يكون رابحًا، أن يكون

ناجحًا، أن يكون مصلحًا.. النهاية الثانية أن يكون خاسرًا. فكان ولابد أن ينقسم الناس إلى قسمين: قسم خاسر، وقسم رابح.. قسم راسب، وقسم ناجح.. قسم نازل، وقسم مرتفع.

وبعد ذلك حينما أراد الحق أن يعرض للناس المنهج الذى يؤديهم إلى القسم الرابح، وإلى القسم الناجح، وإلى القسم العالى، أراد أن يقدم بين يدى ما يقول من المبادئ الشهادة على ذلك. فالحق سبحانه وتعالى حينما يقسم بشىء، قلنا سابقًا أن الله يقسم بما شاء على ما شاء، لأنه يعلم ما خلق ومن خلق، وسر ما خلق. فهو وحده الذى يقسم بما شاء، ولكنا لا نعرف عظمة الأشياء، ولا نعرف خطورتها، لجهلنا بما حولنا من الوجود. ولكن الله الذى خلق هذه الأشياء وأودع فيها أسراره، هو الذى يقسم بها. قلنا أن القسم يأتى مرة بإثبات حين يقول مثلًا «والعصر» وحين يأتى بنفى بالقسم ويكون أوكد من القسم فى قوله مثلًا «لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد» أو «لا أقسم بيوم القيامة» أو «فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم».. ففى واقع الأمر «لا أقسم بيوم القيامة» أو «لا أقسم بهذا البلد» أو «فلا أقسم بمواقع النجوم» أنه لم يقسم، نعم.. لأن القسم سواء كان إثباتًا له كما فى قوله «والعصر» أو يكون نفيًا له كما فى قوله «فلا أقسم بمواقع النجوم» أنما يؤدى إلى غرض واحد، ذلك الغرض هو تأكيد المقسم عليه.. فالقسم إذن فى كل صور القرآن جاء لتأكيد الأمر المقسم عليه.. وتأكيد الأمر المقسم عليه يكون له لونان: اللون الأول أن يقسم بالفعل، واللون الثانى أن يقول أن ذلك الأمر الذى يجب أن يقسم عليه فى نظر الناس، أمر من الوضوح بحيث لا يحتاج فيه إلى القسم.. فكأنه حين يقول «لا أقسم بهذا البلد» كأن الجواب الذى يأتى بعد ذلك أمر من الوضوح بحيث لا يقسم عليه.

وما دام من الوضوح بحيث لا يقسم عليه، فلو كنت مقسمًا لأقسمت بالبلد.. ولو كانت مقسمًا لأقسمت بمواقع النجوم.. لو كنت مقسمًا لأقسمت بيوم القيامة.. ولكن ذلك الأمر واضح لدرجة أنه لا يحتاج إلى القسم.

وهناك أشياء قد يلتبس فيها الأمر فيحتاج إلى القسم، فيقسم الله بالفعل.. إذن فمؤدى القسم ومؤدى نفى القسم واحد فى تأكيد المقسم عليه، إلا أن المقسم عليه أمر قد توجد فيه شبهة فيقسم الله ليرفع تلك الشبهة، والأمر الثانى أمر واضح

لا يحتاج لقسم ولكن لو كنت مقسمًا عليه لأقسمت بكذا وكذا وكذا، ففيه أيضًا الدليل.

ولله المثل الأعلى، الإنسان منا حينما يشعر بوعكة فى صحته يذهب إلى الطبيب، فالطبيب حين يشخص المرض يكتب للإنسان دواء، معنى كتابة الدكتور للإنسان دواء، أنه أقر المريض على شبهته فى وجود مرض، ولكنه بالدواء يحاول أن يزيل ذلك المرض، كذلك حين يقسم الله، يقول أنت من الممكن أن تكون لك شبهة، فأنا أقسم عليك لأنفى عنك تلك الشبهة. ولكن حين يذهب الإنسان إلى الطبيب فيقول له الطبيب ليس لك عندى دواء، أنت ليس عندك شىء يستحق أن أعطى لك دواءً.. إذن فالشبهة لا محل لها. الشبهة لو واجهتنا بالعقل الفطرى تجدها محلولة.. كذلك حين يقول الله لا أقسم.. لا أقسم يعنى عدم اعتراف بشبهتك فى إنكار المقسم عليه. وأقسم أعترف بشبهتك فى المقسم عليه وأقسم لك.. ومؤدى الأمرين واحد.

حين يقول الحق سبحانه وتعالى «والعصر إن الإنسان لفى خسر» نرى أنه أقسم بالعصر، وأقسم بالعصر على طريقة القسم فى القرآن، ليؤكد معنى المقسم عليه، فما المناسبة بين العصر وبين المعنى المقسم عليه؟ أولًا ما هو المعنى المقسم عليه؟ أن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر». والدليل على ذلك، على صدق هذه القضية، العصر.. إذن فالعصر حيثية مقدمة للحكم، أو علة مقدمة للحكم، أو علة مقدمة على العلل «والعصر أن الإنسان لفى خسر».. تلك هى القضية التى يقسم عليها الحق سبحانه وتعالى.

العصر إذا أطلقت أول الإطلاق، تنصرف عن المعنى اللغوى، إلى معنى اصطلاحى هذا المعنى الاصطلاحى هو العبادة المخصوصة فى ذلك الوقت.. هذا أول ما يرد على ذهن الإنسان. وقد ينتقل من العبادة المفروضة فى الوقت الخاص، التى هى بعد الظهر وقبل المغرب، إلى الزمن الذى فرضت فيه الصلاة، لأن اسمه العصر، وقد ينتقل الذهن إلى معنى أوسع من أن يكون العصر ليس هو الزمن المخصوص بين الظهر وبين المغرب، ولكن هو مطلق طائفة محددة من الزمان لها مهمة مخصوصة.. فمثلًا يطلق العصر على النهار كله، ويطلق العصر على الليل كله، بجامع أن هذا طائفة من الزمان لها خصوصية الضياء، وهذه طائفة من الزمان لها خصوصية الظلمة.

إذن فالعصر يطلق مرة على العبادة المفروضة، ومرة يطلق على زمن هذه العبادة وحدها، ومرة يطلق على طائفة من الزمن لها طابع خاص يحكمها كالنهار مثلًا، بما يجمعه من ضوء ونور، أو كالليل مثلًا بما يجمعه من ظلمة. وقد يطلق العصر والمراد به فترة أوسع من ذلك، بمعنى أنه زمان يشمل ليلًا ونهارًا وقد يشمل أسابيع، وقد يشمل شهورًا، إلا أن الزمن هذا يحكمه طابع خاص: فى مقوماته، فى مشخصاته فى أحواله، فى حضارته.. كما نقول عصر الجاهلية، عصر صدر الإسلام، العصر الأموى، العصر العباسى، العصر الحاضر الذى يبدأ من النهضة الحديثة..

إذن فالعصر متدرج فى مفهومه ومعانيه: المعنى الأول الوقت العبادة والمعنى الثانى وقت هذه العبادة. المعنى الثالث الوقت الذى يجمعه طائفة طبيعية من الخصوصيات، كالنار أو كالليل، أو يطلق العصر على طائفة من الزمان تعم ليلًا ونهارًا، ولكن لها طابع خاص يحكمها، هذا الطابع الخاص قد يكون طابعًا سياسيًا قد يكون طابعًا علميًا.. إذن نسميه عصر كذا وعصر كذا وعصر كذا.

فبأى هذه العصور يقسم الحق سبحانه وتعالى؟

لو نظرنا إلى العصر بالمعنى الأول، لوجدنا أن العلماء حينما تعرضوا إلى قول الله سبحانه وتعالى «حافظوا على الصلوات والصلاة والوسطى» قالوا أنها العصر..

والعلماء مختلفون.. الصلاة الوسطى هل هى الظهر، العصر، المغرب، العشاء، الفجر؟.. .كلام شائع فى كل الأوقات. ما سببه؟ لأن «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى».

لا يكون شىء وسط إلا إذا كان فيه طرفان فما هو تحديد الطرفين الذى على ضوئه نحدد الوسط.

أن أردت تحديد الطرفين بالنسبة للتشريع. فأول صلاة فرضت علينا الظهر، وثانى صلاة العصر، وثالث صلاة المغرب ورابع صلاة العشاء، وخامس صلاة الفجر.. فلو أردت التحديد فى فروض التكليف لكانت تعنى الصلاة الوسطى فى زمن التكليف أن تعد اثنين وتجيب الوسطى وبعد ذلك تعد اثنين، ومعنى ذلك المغرب...

نمسك أفراض الصلاة بالنسبة لفريضيتها علينا.. الذى قال الظهر ما صحته فى ذلك؟ نظر إلى يوم العمل، إلى النهار.. النهار هو محل الكدح، الذى يواجهه الإنسان يقظًا فى أعماله. الليل نكون نائمين فيه. فالتحديد يكون بالنهار الذى عندنا فيه يقظة وكفاح وجهاد فى العمل، فيبقى الوسط بالنسبة له وسط للنهار، والظهر هو ذلك الوسط...

وقول آخر: لا.. لقد أخذت الوسط باعتبار الزمن الذى هو النهار، أنه هو العصر، لماذا يكون العصر؟ ما الذى جعله يعتبره العصر؟ لأن فيه بعض أحاديث وردت فى قوله ﷺ يوم الأحزاب «حبسونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله عليهم بيوتهم نارًا».. فمعنى هذا أن العصر حدد بأنه ذلك الوقت.

قال آخر: وفيه علة أخرى، هذه العلة الأخرى أن العصر وسط بالنسبة لفرضيات الصلاة، ولكن بالنسبة لتوقيتات الصلاة، فإنه سبقه فرضان نهاريان وهما الفجر والظهر، وبعده فرضان ليليان وهما المغرب والعشاء.. هذا وجه..

واحد ثانى قال: لا.. هو المغرب، والوسطية فيها باعتبار.. ما هو هذا الاعتبار؟ قال: الصلاة فرض منها اثنان كالصبح، وفرض منها أربعة كالظهر والعصر والعشاء، وفرض منها ثلاثة كالمغرب.

وقال آخر: لا.. هى العشاء.. لماذا؟.. لأن العشاء متوسطة أمرين لا يدخلهما القصر فى السفر وهما: المغرب والصبح.

وقال آخر: لا.. هو الفجر.. لماذا؟ لأنه متوسط بين أمرين: الأمر الأولى فرضين جهريين هما المغرب والعشاء، وفرضيين سريين وهما الظهر والعصر..

وفيه تعليل أقوى وهو أنه وسط، لأن معنى الوسط الذى يجمع شيئًا من الطرفين.. والفجر يجمع ذلك.. فصلاة المغرب والعشاء ليليتين[1] قطعًا.. وصلاة الظهر والعصر نهاريتين قطعًا وصلاة الفجر فيها من النهارية أن الفجر قد طلع، وفيها من الليلية أن الشمس لم تشرق.. يبقى هذا هو الذى جامع.

---

(١) فى الأصل: ليلين.

ويبقى على هذا الحق سبحانه وتعالى يبهم بعض الأشياء، فى ذلك الإبهام تربيب للفائدة.. لماذا؟ ليحرص الإنسان على كل وقت ظنًا منه أنه هو تلك الصلاة المطلوبة من الله، ويبقى كان كل فرض مما فرضه الله سبحانه وتعالى مطلوب مرتين:

«حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى» نقول ما هى الصلاة الوسطى؟ ما دام هذا يقول هذه. وهذا يقول هذه هذا يقول هذا، وتكرر الأمر بها مرتين مرة فى الأمر يقول «حافظوا على الصلوات» ومرة فى قوله «والصلاة الوسطى» يبقى إذن وحافظوا على كل الصلوات. كما أخفى سبحانه وتعالى ليلة القدر فى رمضان، فى وتر العشر الأواخر ليجتهد الإنسان فى قيامها كلها رغبة فى إصابتها، وكما أخفى الحق سبحانه وتعالى ساعة الإجابة يوم الجمعة، ليجتهد الإنسان فى كل وقت من أوقاتها بالعبادة.. فكأنها توجب الفائدة بمعنى أنها تربط العبد أكبر وقت ممكن مع ربه.

حين ننتهى من هذا نقول: إذا أريد فى القسم فى قوله سبحانه وتعالى «والعصر» الذى هو ذلك الوقت المخصوص، ما هو السبب أنه أقسم بالعصر؟.. لأن العصر فى هذا يأتى فى آخر النهار، وآخر النهار الناس يكونون مشغولين[1] بأعمالهم، وربما كان عندهم بعض الأشياء من العمل فيقولون أنتم هذا وينتهى، فيغلبهم الوقت. فالحق سبحانه وتعالى أكد به. وأيضًا لأن العصر هو وقت الحصيلة النهائية فى حساب الإنسان على عمله اليومى. أهو أداه بما يؤدى له نفعًا؟ أهو شغل الوقت بما يعود عليه بالخير؟ أم هو قد بدد الوقت؟.. فوقت العصر هو وقت الحساب عن اليوم.. ما دام وقت الحساب عن اليوم يبقى يناسب أن الحق سبحانه وتعالى يقول «والعصر» أى الذى تحاسبون فيه أنفسكم عما قدمتم هو حصيلة عمل فى ذلك اليوم. فإن كنتم عملتم شيئًا حسنًا ينفعكم فسترون، وأن كنتم قد ضيعتم الوقت فسيكون فى ذلك ندمًا على أن الإنسان فوت جزءًا كبيرًا من الزمن لم يشغله بما ينفعه.

وإن أردنا بالعصر اليوم كله على حد قول الشاعر: (فلم يلبث العصر أن يوم وليلة).. فأطلق على اليوم والليلة أنها عصران، يبقى كل واحد منهما عصرًا..

العصر هو محل الكفاح النهارى، وأيضًا سيحاسب نفسه فى آخر اليوم عن حصيلة ما قدمه من عمل، أو حصيلة ما لم يقدمه.

---

(١) فى الأصل: مشغولون.

أو أن يكون ذلك شيء فى الطائفة الكبيرة من الزمن التى تتسم بخصوصية، العصور التى عاصرها الإنسان على هذه الحياة عصور مختلفة، كل عصر جاء له بداية وله انتهاء، حضارات قامت، أمم قامت دول حكمت وبعد ذلك انتهت قيامها يدل على أن فيها مقومات الوجود، وفناؤها[1] وانهيارها يدل على أنها حملت بعد ذلك مقومات الفناء.

فلو أن مقومات الوجود فى أى عصر ظلت فيه رتيبة، لما انتهى ذلك العصر..

إذن ما الذى جعل ذلك العصر ينتهى إلى أفول؟.. أن مقومات وجوده كانت نشطة فى أول الأمر، وبعد ذلك غفل الناس عنها، أو تشاغلوا فحملت مقومات فنائها فتدمرت.

كان الحق يريد قبل أن يعلن المبدأ أن يستلهم من واقع التاريخ من واقع الوجود لكى يحتم ذلك المبدأ.. حتم ذلك المبدأ فى كل عصر من العصور، فى كل وقت من الأوقات، فستجد المبدأ حق، أنه لا يستقيم ولا يستقر أى عصر من العصور بمقومات إلا إذا حافظ على ما يأتى:

ـ أن تكون فيه عقيدة يجمعها كلمة الإيمان.

ـ أن لا يكتفى بالعقيدة، بل لابد من إبراز العقيدة والتعبير عنها بعمل، وترجمتها بسلوك. لأن وجود العقيدة بدون أن تترجم إلى سلوك يبقى كلام لا قيمة له.

ـ فإذا ترجمت العقيدة إلى سلوك وإلى عمل، فستتعرض لعقبات كثيرة. وما دامت[2] تتعرض لعقبات كثيرة يبقى تحتاج إلى مقومين أيضًا.. هو أن يتواصى المملوكون بالعقيدة على الحق، بمعنى أن يكون الحق دائمًا نصب أعينهم... فكل إنسان يوصى أخاه بالحق. وهل إيصاؤهم بالحق يمنع من وجود العقبات من غير المؤمنين بالحق؟ يبقى لازم فيه صراع، هذا الصراع بين قوى الخير التى تريد الحق وقوى الشر التى تريد الباطل. يبقى إذن لابد فيه تواصى بالصبر.

---

(١) فى الأصل: وفنائها.

(٢) فى الأصل: ما دام.

فكأن منهج العمل الناجح، الذى يجعله ناجحًا دائمًا كم شىء؟.. عقيدة، يترجم عنها إيمان.. عمل على وفق تلك العقيدة.. بعد ذلك تواصى بالحق لتظل هذه العقيدة ثابتة، وتظل الأعمال الخاضعة للعقيدة ثابتة.. وبعد ذلك تعترضها، فلابد أن نتواصى بالصبر.

كل حركة فى الحياة لا تحكمها هذه العناصر الثلاثة، حركة مآلها إلى الخسران، مآلها إلى الزوال، مآلها إلى أنها لا تعمر فى الوجود أبدًا، مآلها أنها تفنى.. فلو إن إنسانًا أرغم جماعة على عمل من الأعمال لا يتسم مع عقيدتهم، فسيقرر هو، ولا يمكن أن يستمر ذلك بالإكراه، وبعد ذلك تخرج المسائل عن طوق المكرِه، بعد ذلك تنهار هذه المسائل..

يبقى إذن كل عمل يكون ناجحًا إذا أقيم لابد أن تستكمل فيه هذه العناصر، عناصر الإيمان بالمبدأ... عناصر العمل.. عناصر التواصى بالحق.. عناصر التواصى بالصبر.. حينئذ يكون الحق سبحانه وتعالى قد قدم الدليل فى القسم، وقدم الاستشهاد بأن يقول لك استعرض أى عصر من العصور.. أى طائفة من الزمن.. أى مبدأ من المبادئ، كتب له النجاح لماذا؟.. لاستيفائه لهذه العناصر، فإن لم يستوف هذه العناصر، فهو مبدأ محكوم عليه بأن صاحبه فى خسر، فإن صاحبه فى ضلال، وأى مبدأ يستوفى هذه العناصر، فاحكم عليه بأنه مبدأ ناجح، ومبدأ ناصع.

لذلك تجد الحق سبحانه وتعالى حينما يعرض علينا ألوانًا من العصور القديمة التى سبقت وجمعها طابع واحد من الزمن، مثلًا يعرض علينا قوم فرعون، قوم نوح، عاد، ثمود.. مملكة سبأ مثلًا أخذت عصر نهضة وعصر سعادة، يقول الحق «لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور».

حضارة قامت التفتت لها الدنيا، هذا الذى جعلها تنهار؟ ما الذى جعلها تنحدر؟ لأنه لم يكن فيها مبادئ الصمود ولا مبادئ الخلود التى هى: العقيدة، والعمل على وفق العقيدة، والتواصى بالحق والتواصى بالصبر.

ويعرض علينا الحق أيضًا حضارات أخرى تمثلت فى عصور كانت مزدهرة، حسبك مثلًا من عصر كالعصر الفرعونى مثلًا الذى لا يزال من آثاره أشياء تشد الناس حتى يأتون من بلاد النور وبلاد المعرفة وبلاد الحضارة لكى يروا هذه الأشياء.. حسبك من عصر يلفت الذى يعيش فى هذه الحضارة ليذهب إلى هناك ليراها فيتعجب يقول تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾.. إذن الحق سبحانه وتعالى يقول استقرئ التاريخ، وانظر إلى العصور، وانظر إلى الحضارات التى تقدمت، ففى دراستك لهذه العصور ترى أنه لا يزدهر ولا يبقى إلا المبدأ، هذا المبدأ يعيش على عقيدة، ويترجم إلى عمل، يتواصى فيه بالحق، ويتواصى فيه بالصبر.

ولذلك تجد أيضًا عندما نستعرض تاريخنا الإسلامى، نجد مثلًا أن فيه عقيدة، كلنا نؤمن بالله والملائكة والكتب والرسل، ونؤمن بالقضاء ونؤمن بالقدر ونؤمن باليوم الآخر، ومع ذلك نجد أن العصور الإسلامية، تعرضت لأشياء من الهوان ومن الذلة، ومن الضعف، ومن الاستعباد، ومن استعمار الغير لنا..

لماذا؟ لأننا وأن كان عندنا العقيدة إلا أن العنصر الثانى غير موجود، وهو عنصر العمل.. أفرض أن العمل موجودًا يظل إلى أن تتعرض القدرات فقد زين للإنسان أن يخرج عن منهج الحق.. أفرض أننا ثبتنا على منهج، لا نتواصى حين تأتى الأزمات وحين تأتى الأمور الشح، فلا نتواصى بالصبر والاحتمال عليها، بل تخور عزائمنا، ونرضى بالأمر الواقع الذى فرضه علينا عدونا، أو الذى فرضه علينا استعمارنا.

لو أن هذا المبدأ بكل عناصره ظل يقظًا فى حياة الأمة الإسلامية، لما أمكن أبدًا أن يكونوا فى خسر. فإذا رأيتهم فى خسر، فاعلم أن عقيدة ضعفت، أن عقيدة لم تترجم إلى عمل، أو أن العمل حينما تعرض لهوى النفس انصرف عن الحق، أو أنه حينما لم ينصرف عن الحق وجاءت له مصائب من خارجه لم يتواصوا بالصبر، فخارت

عزائمهم أمام أعدائهم، وحين تخور عزائمهم أمام أعدائهم ولا يوجد التواصى بالصبر والاحتمال، لابد أن المبدأ ينهار وعدوه يتمكن منه.

إذن فالحق سبحانه وتعالى يطلب منا أن نعرض لواقع التاريخ فى الأرض، ولواقع الحضارات، ولواقع العصور بكل ميزاتها لنتأكد من أن المبدأ الذى أطلقه الحق سبحانه وتعالى فى قوله ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عندما ترى الشىء وفيه استثناء، أعرف أن الاستثناء هذا قسم المسألة إلى قسمين: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ قضية مطلقة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يبقى الإنسان سيقسم بواسطة الاستثناء إلى نوعين: نوع فى خسر، ونوع فى غير خسر.. ما هو الإنسان؟ ما هى حقيقة الإنسان؟.. الإنسان مرة يطلق ويراد به حقيقة، ومرة يطلق ويراد به الجنس، ومرة يطلق ويراد به فرد من الأفراد، ومرة يطلق ويراد به كل الأفراد.. فما الذى يتحكم فى إرادة معنى من المعانى؟.. الاستثناء.. عندما يقول مثلًا ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فقد استثنى جماعة الذين آمنوا، استثناها من أى شىء؟ من الإنسان. يبقى الإنسان يراد به فرد ولا تراد به الحقيقة فى ذاتها، وأنما ترد به الحقيقة فى كل فرد من أفرادها. فكأنه قال: كل أفراد الإنسان، يسموها الاستغراقية، أى تشمل كل الأفراد لأن الذى استثنى منها ليس فردًا وأنما استثنى منها جماعة، ولا يمكن أن تستثنى الجماعة إلا من جماعة أكثر منها.

فكأن قول الحق ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ أى كل إنسان، جميع الأفراد فى خسر إلا من؟ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.. إذن «إلا»[1] فى كلمة الإنسان دلت على أن المراد هنا الاستغراق الحقيقى لكل الأفراد، يعنى قضية لم يشذ عنها فرد من الأفراد سواء كان فردًا فى نفسه، أو فردًا فى أسرته، أو فردًا فى أمته، أو فردا فى المجتمع.. والدليل على ذلك أن الاستثناء جاء من كلمة إنسان، إنسان مستثنى منه والمستثنى من هو؟ الذين آمنوا، وهم جماعة ولا يمكن أن تستثنى الجماعة من فرد، ولابد أن تستثنى الجماعة من جماعة أوسع دائرة منها.

---

(١) فى الأصل: إلا.

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تجد العنصر الأول عنصرًا عقديًا[١]، ما معنى عقدى؟ نجد أن اختيار كلمة عقيدة للمبدأ الذى يستمر فى النفس، وبعد ذلك ينعقد عليه القلب، ويربط عليه الفؤاد بحيث لا يخرج منه أبدًا. لأن غير المعقود عُرضةٌ للتطاير والانحلال، أنما أمر عقد، يعنى أنه أصبح مربوطًا، هذا هو معنى كلمة عقيدة.. يبقى العقيدة ليست هى الفكر فى الرأس، لأن الفكر فى الرأس لا يزال محل المناقشة، ليست العقيدة حين تستقبل الحواس، كل شىء تستقبله حواسك لا يقال له عقيدة. لماذا؟ لأنه أمر محس. فأنا لا أقول أنا أعتقد أن الكهرباء موجودة.. لا أقول أنا أعتقد أن الجامعة الآن بابها مفتوح والناس يدخلوها... لأن هذا أمر حسى، لا يمكن يقال فيه عقيدة.. لأن العقيدة لابد أن تكون فى أمر غيبى، إنما أمر حسى لا تأتى فيه عقيدة أبدًا، لأن الأمر الحسى يستوى فيه كل الناس، أما كلمة عقيدة تأتى فى الأمور الغيبية.. ولذلك العقيدة التى هى المقومة الأولى من مقومات الأمور أن تؤمن بالله... الله غيب... وملائكته غيب.. وكتبه ورسله، أيضًا غيب، رغم أن الكتاب نراه، والرسول نراه لأن أنا لا أقول لك آمن بهذا على أنه رسول.. أنا لم أشهد الوحى وهو نازل عليه ليقول له أنت رسول، لم أشهد وهو نازل على الرسول، أنا أشك فيه... أنما آمنت بقلبى، بأمور غيبية أنه نزل عليه وحى وأعطاه الكتاب واعطاه أمرًا[٢] لم أره..

إذن العقيدة الأساس الأول فيها أن تكون غيبيًا «أمن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره».. سر الله بالقدر هذا غيب، الآخرة لم تعد أمرًا محسًا؟ أنا صدقتها لأن الله قال بها.. أذن فالعقيدة دائمًا تكون فى الأمور الغيبية. ومن هنا يختلف المؤمن عن الكافر.. الكافر يريد كلها أشياء محسة، والشىء المحس ليس فيه إيمان. لماذا؟ لأنك تستوى مع الغير فى إدراك الشىء المحس، فلو أن العقيدة تتعلق بأمر محس يبقى يستوى[٣] فيها المؤمن والكافر. لكن ميزة المؤمن أنه آمن بأشياء غيبية. هذه الأشياء الغيبية فيها ميزانك، هذا الميزان ما هو؟ ليس معنى أنى لا أدرك الشىء، ليس معنى ذلك أنه غير موجود. لماذا؟ فى نفسى «وفى أنفسكم

(١) فى الأصل: عنصر عقدى.
(٢) فى الأصل: أمر.
(٣) فى الأصل: يحتوى.

أفلا تبصرون».. نفسى هذه جسم ومادة لا تخرج عن طبيعة مكونات الأرض، وأنما عنه شىء إذا حل منه أعطاه الحياة والحس والحركة والفكر، وإذا نزع منه صار رمة وتحلل إلى عناصر وصار مادة. ما اسمه؟ هو الروح: هل رأيتها؟.. لا.. سمعتها؟.. لا.. وذقتها؟.. لا.. شممتها؟.. لا.. لمستها؟.. لا.. إذن ليست مدركة بأى حاسة، ومع ذلك آمنت بها.. فكأن الحق ترك لنا لنؤمن بأمر غيبى عن إدراكنا الحسى وبه حياتنا.. شىء وبه حياتنا ولا إدراكه؟.. إذن إذا حدثت بأن لله رب خالق الكون وإدارته وتدبيره وأنت لا تراه لا تستعجب لأن هذا أمر موجود فى نفسك. فإذا كنت لم تستطع أن تدرك خلقًا من خلق الله فى نفسك، الروح من خلق الله لم تستطع أن تدرك خلقًا من خلق الله فى نفسك، وأنت مؤمن بآثاره فيك، فكيف تدرك من خلق هذا الشىء، فهذا مخلوق لم تستطع إدراكه، ومع ذلك آمنت بأنه موجود. فكيف بالذى خلق ذلك غير المدرك، تبقى أنت تريد أن تدركه كيف؟.. لو أدركته لا ينفع أن يكون إلهًا.. لأنك أحطت به، وأحاط به حسك، وأحاط به عقلك.. إذن من عظمته أنه لا يدرك..

إذن ففيه فرق بين وجود الشىء، وإدراك الشىء. فلا يصح أن يربط المؤمن بين إدراك الشىء والإحساس به.. عدم حسك به وعدم إدراكك له[1] لا يعنى أنه غير موجود، والدليل على ذلك موجود فى نفسك وهو روحك.

ولماذا نحيله إلى شىء لا يراه أبدًا؟.. أنت تستقرئ كتاب الكون كل يوم، وتكتشف فيه غائبًا[2] عنك. تكتشف كنزًا وسرًا من أسرار الكون.. قبل اكتشافه أكان موجودًا أم غير موجود؟.. يبقى الذى حصل فقط أنك اكتشفته.. كيف اكتشفته؟ وسائل إدراكى لم تكن قادرة على إدراكه الأول، وبعد ذلك يسر لى بوسائل الإدراك أن أدركه.. الميكروب مثلًا الذى اكتشف فى العصر الحديث، كان موجودًا أم غير موجود؟ أعدم رؤيتك وعدم إحساسك به قديمًا يعنى أنه غير موجود؟.. لا.. لا يعنى أنه غير موجود، أنه لم يكن قد دخل فى دائرة إدراكه، دليل هذا المبدأ يدخل فى دائرة إدراكى، دائرة الخواطر أدركته.. أنت إذا جلست فى حجرة من الحجر مثلًا، وبعد هذا فتحت النافذة

(١) فى الأصل: به.
(٢) فى الأصل: غائب.

ودخلت حزمة ضوئية من الشمس، عندما تدخل الحزمة الضوئية من الشمس ترى فى هذه الحزمة الضوئية أشياء تتحرك فيها ذرات.. أين كانت هذه الذرات قبل أن تدخل الحزمة الضوئية تلك: هى موجودة أيضًا، ولكنك لم تكن تراها لأن الضوء الموجود عندك لم يكن يكفى لإبراز قائمتها، فلما دخلت حزمة ضوئية قوية عليها بانت لك..

إذن عدم إدراك الشىء، ليس له علاقة بوجود الشىء.. وما دام الإنسان فى المادة التى هى من جنسه، الذرة من جنس، والميكروب من جنس مادى ومع ذلك لم أكن أدركه ثم أدركته.. ألا يجعلك ذلك تستأنس بأن فيه كثيرًا من الأشياء الغيبية أنت لا تدركها وهى موجودة؟ إذا كان من مادتك ما كان موجودًا ولم تدركه.. فإذا قال الله لك فيه أشياء ألطف منك وهى الجن، فيه أشياء ألطف من الجن وهى الملائكة وأنت لا تدركها.. صح.. لأن فيه شىء من جنس مادتى بلغ من الدقة وأنا لا أدركه، ومع ذلك أدركته.. يبقى إدراكى لما كان غيبًا قديمًا يؤتنى بأننى أجعل فيه إيناس لهذا الغيب لعلى فيما بعد أدركه.

إذن فالعقيدة لا تتأتى إلا فى الأمور الغيبية: إيمان بالله، إيمان بملائكة الله، إيما بالكتب إيمان بالرسل، إيمان بالقضاء والقدر خيره وشره، إيمان بأن فيه آخرة ـ تلك هى العقيدة.

هذه العقيدة لها أم.. هى التى يدخل عليها الإنسان بعقله.. أن تؤمن بالله.. هذا هو الأصل، دخلت على الإيمان بالله بعقلك، فإذا ما دخلت على أنه فيه حاجة اسمها الله موجود، له قدرة، له قيومية، له حكمة، إليه المرد.. آمنت به.. أقوم بعد ذلك العقيدة الثانية يكون مصدرها ما آمنت به أولًا.. لماذا أنت آمنت بالملائكة؟ لأن الله قال.. آمنت بالله لماذا؟.. لأنى انتهيت إليه بالدليل العقلى.. إذن العقائد تبقى نوعين: نوع هو القمة، الأساس.. ونوع تخبر به القمة. فأنا آمنت بالملائكة لأن الله قال فيه ملائكة.. آمنت بالجن، لأن الله قال فيه جن.. آمنت بالرسل، لأن الله قال ذلك.. آمنت بالقضاء والقدر لأن الله قال ذلك.. آمنت باليوم الآخر، لأن الله قال ذلك.. ولماذا آمنت بالله؟ لأن عقلى دلنى على وجود ذلك الإله.. تبقى إذن المسألة كلها مردودة إلى من؟ مردودة إلى العقل، إلا أن العقل احترامًا لنفسه ما دام آمن بالله

فيجب عليه تبعًا لذلك أن يؤمن بكل ما صدر عن الله، كل ما يطلب منه أن يوثق ذلك الأمر بأنه صدر عن الله.

إذن ما دام آمنت بالله، وسأخذ منه عقديات غيبية، من الأولى أن آخذ أشياء ظاهرية. آخذ منه تكاليف، آخذ منه منهج الحياة.. لماذا؟ لأننى أخذت منه أشياء لا تستوى تحت حس.. أقوم آخذ منه ويكون هو المصدر الوحيد.. ما دام ذلك هو المصدر الوحيد ماذا يعطى الإنسان ذلك؟.. يعطى للإنسان أن الإنسان لا يضعف أمام الحياة. لماذا؟.. لأنه لا يواجهها بقوته، ولكن يواجهها بقوة الإله الذى آمن به. فإذا جاءت له أى أحداث بالغة مهما بلغت، وخرجت عن نطاق قوته ونطاق سببه فيجب ألا يثور لماذا؟ لأنه لا يواجه الحياة بأسبابه، ولا يواجه الحياة بقوته، وأنما يواجهها بالقوة المطلقة وبالقدرة التى لا تعجز عن شىء، وبخالق الأسباب.. «ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب».

تضيع الأسباب.. إذن فالإيمان بالله يثرى النفس البشرية أو يفقرها؟ يثرى النفس البشرية، يجعلها ثرية، يجعلها غنية.. بعد ذلك إذا آمنت بالله، يخبرنى ويطمئنى على أن هذا الوجود بما فيه من كل الأجناس مخلوق لخدمتى ومسخر لى.. رماده، ونباته، وحيوانه.. كل هذا مسخر لك ما دخل فى طوق قدرتك، وما لم يدخل.

إذن فأنا لا أتشكك فى أن الكون سيعصى علىَّ، أو يعمل علىَّ إضرابًا، لأنه مخلوق لى.. أخذت ملكيته بالخلافه.. إذن واثق أن الكون لا يمكن أن يخرج على نطاق خلافتى ولا عن نطاق التسخير لى..

يبقى ماذا أعطى للإنسان؟ أعطى للإنسان قوة زائدة.. إذا قال الله سبحانه وتعالى أن الخلق هذا كله عبادى، وما دام عبادى يبقى أنت وهم مشتركون فى العبودية، ليس فيكم واحد ابن الله، ربنا لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا. يبقى كلنا بالنسبة لله سواء وعبيد، ما دام عبد، يبقى أنا سألزم منهجين اتنين المنهج الأول أننى وهم عبيد، فأنا لا أستعلى عليهم، لأن عبد غيرك هو مثلك، ما دام ليس عبدى يبقى حر مثلى تمامًا.. وبعد ذلك لا استخذى لواحد.. فيمنعنى من أن أعلو ويمنعنى من أن أستخذى.. يبقى إنسان سوى، لا أنظر إليهم على أنهم منافسون لى فى الحياة ويأخذون رزقى، أنظر إليهم

على أنهم معاونين لى فى الحياة، أخوة يحبون لى الخير، لأنهم مؤمنون جميعًا بمنهج واحد، هذا المنهج الواحد يقول المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا.

إذن كلما أنا وجدت الكم الكثير من الناس، لا آخذه بأنه على، بل آخذه على أنه لى.. عندما يكون فيه نعمه عند واحد، وما دام أنا مؤمن بأن الله هو الواحد الواهب لهذه النعم.. يبقى لا أحقد عليه لما هو يؤدى حق الله فى النعمة ويصيبنى منها شىء، أيضًا لا أحقد عليه، تبقى النعمة فى يدى كالنعمة فى يد غيرى لأن خيرها واصل إلى، سواء كان معى، أو من عند غيرى.

إذن الإيمان بالله، وأنه المرجع النهائى للكون، والمصدر النهائى لكل قوة يجعل الإنسان يعتز بالحياة ولا يخور أمام أى مظهر من مظاهر الحياة.. أيضًا. فما دمنا سنؤمن بأنه إله موجود.. تصوراتى هذه آخذها ممن[1]؟ آخذ تصوراتى من تصوراتك؟ لماذا آخذ منهجى من عملك أنت؟ ولماذا أنت تأخذ منهجك من عملى أنا وفكرى؟ ولماذا لا يكون الأمر بالعكس؟ لماذا تتحكم أمة لأنها قوية فى أنها تضع نظمًا ومبادئ وتخضع لها الأمم الضعيفة؟

إذن ستتفرق بنا السبل حسب الأهواء. لكن عندما أعرف أن لى ربًا، وهو الوحيد الذى أتلقى منه المنهج، يبقى قضى على هواى، وعلى هواك، ولا سلطان لأحد مطلقًا فى أن ينظم نظامًا يحكم ذلك الكون.

إذن ماذا عمل فينا، عصمنا من تجارب. ما هى التجارب؟ أننا نقعد نجيب مبدأ من رأسنا.

حين أومن بأن ليس لله ابن، ليس لله خليل، ليس لله صاحب.. إذن فنواجه الحياة على أننا كلنا عبيد، ما دام كلنا سنواجه الله عبيدًا، يبقى ليس هناك واحد واسطة لله أبدًا.. يبقى كل واحد يستطيع أن يتعمق بالله.. أيضًا حين أجد أن العقيدة التى آمنت بها أننا كلنا سواء، وبعد ذلك كرمنى وسخر لى ذلك الكون، إذن أنا لا أرضى بأن أكون فى مرتبة الهوام، يعنى فى منزلة أقل من المنزلة التى وضعنى فيها ربى، مثل المذاهب

(١) فى الأصل: من.

التى تقول أن أصل الإنسان قرد.. الله كرم الإنسان وبعد ذلك اتسفل الإنسان لاجعل أصله جنس[1] هو دونه، لا يمكن.. كل مذهب يأتى من هذه أرفضه، لأن هذا ينافى تكريم الله للإنسان.. أيضًا يجب أن أضع فى حسابى أننى بالنسبة للناس وتصرفاتى معهم لست خاضعًا فى الحساب والجزاء لهم لأننى أستطيع أن أخبئ عنهم أشياء، وأن أستر عنهم أشياء، وأن أقابلهم بوجوه[2] غير ما فى قلبى..

نقول له: لا.. التصور الإيمانى أن الحق سبحانه وتعالى يطلع على خائنة الأعين، ويعلم ما تخفيه الصدور. إذن سيكون المؤمن سويًا، ظاهره كباطنه.. لماذا؟ لأنه لا يتعامل مع الناس أنما يتعامل مع الإله. الذى لا تخفى عليه خافية، وما دام لا تخفى عليه خافية، يبقى معناه أننى أعامل الناس بشكل واحد، بنظام واحد. هذا النظام مبنى على أننى ليست لى واجهة، وليس لى خبىء، واجهتى هو خبيىء.

عندما أنظر.. لما أتصور الإيمان بالله، وأنه هو الذى خلقنا وبعد ذلك سنرجع إليه إذن لازم أؤمن بأن الدار الدنيا هذه ليست كل شىء. الذى يحرص على الدنيا ويظلم فيها ويطغى، ويتمتع بأقصى قسط من النعيم، ويأبى أن تقيده مناهج لا من السماء ولا من الأرض، ويريد أن ينطلق فى الحياة على حل شعره كما يقولون، نقول هذا هو الإنسان الذى يفهم أن حياته فقط هى هذه الدنيا. ولكن أنا إذا ارتبطت بالعقيدة الإيمانية، أرى أن هذه الحياة مَعْبَر فقط وليست محل الجزاء.. يبقى مهما يصيبنى لا أحزن، لأنها ليست النهاية.. «وأن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون» ليست هى الحياة.. إذن أنا آخذها برزخًا، آخذها معبرًا فقط إلى دار أخرى، فمهما أصابنى فيها لا يمكن ينال منى شيئًا. لماذا؟ لأن الغاية مازالت ستأتى قدامى.. وبعد ذلك يقول ما دامت المسألة بهذا الشكل وأنت ستتصور بإله، وتأخذ العقيدة عن ذلك الإله، أنه بهذه العظمة.. وبهذه القوة، وبهذا العلم الخفى الذى يكشف أمورك الداخلية، فإذا كنت فيه بالنسبة للناس لن تدارى عنه، يبقى ليس ممكنًا أبدًا أن تكون بالنسبة إليه أقل من دون الناس. يبقى لا يمكن أن تجعل أنه يطلع فى سريرتك على شىء من الأشياء.

---

(١) فى الأصل: جن.

(٢) فى الأصل: برجوة.

وأيضًا فإنك لو نظرت إلى ذلك الكون، نجد فيه إله، وهذا الإله عملنا لا يزيد فى ملكه، إيماننا لا يجعل عرشه يثبت، كفر الكافرين به لا يجعل عرشه يتزلزل.. إذن فأنا على المكلف به وسأعطى عليه ثواب، يبقى بمحض الفضل من الله سبحانه وتعالى. لماذا؟ لأن إذا كان الثواب يلزمه، لو عملك هذا سيعود عليه بمنفعة. أنما العمل منفعته عائدة عليك أنت.. يبقى إذن عندما يصيب[1] مع ذلك عليه ثوابًا، يبقى بمحض فضله سبحانه وتعالى.

إذن أنا بواسطة هذا التصور العقدى، سيمنعنى من أشياء كثيرة: يمنعنى من أن أفكر أننى فى الحياة فرد ووحيد.. لا.. أنت لك إله، ونحن فى قوانينا قلنا أن الذى له أب لا يحمل هم الحياة، ولا هم المعايش لا يهمه إن كانت الحياة تغلى أو ترخص، هذه كلها مسائل لا تدخل فى حسابه لماذا؟.. لأنه له أب، فإذا كان من له أب لا يُشْغَل بهم الحياة، فكيف حال من يكون له رب؟ لا بد أن يختشى على عرضه.. ده رب.. يبقى إذن هذا هو الرصيد الذى يجعلنى أخوض فى الحياة أو لا أسال عن أى شىء، وأعمل، ومثلما قال الرافعى[2]: وكن رجلاً كالضرس، يرسو مكانه ليمضغ لا يعنيه حلو ولامر.. يجب أن تكون فقط متحركًا، لا يعنيك زى ما تجرى.. لماذا؟ لأن أنا أمام رب وهذا الرب لن يخذلنى أبدًا، وأن حصل شىء على غير ما تشتهيه نفسى، فتلك الدنيا ليست هى الميزان، لابد أن يمحص الله سبحانه وتعالى.. عملت بعض القفلات بعض السيئات ويريد أن ينظفنى، يعنى يحاسبنى حسابًا عاجلًا، لكى لا يجمع على.. لا يجمع الله على عبده بين أمنين، ولا بين آخرتين.. ومن أمنه فى الدنيا أخافه فى الآخرة، ومن أخافه فى الدنيا أمنه فى الآخرة.

إذن فأنا استقبل الممحصات التى تأتى من كوارث الدنيا، ومن نكباتها فى مال فى نفس، بمرض، بولد كل هذا استقبله على أنها ممحصات والإنسان لا يمحص إلا من يحبه، يقول الحديث القدسى «وعزتى وجلالى لا أخرج عبدى من الدنيا وقد أردت به الخير حتى أو فيه ما عمله من السيئات (السيئات أحاسبه عليها فى الطبيعة)

---

(١) فى الأصل: يصابك.

(٢) الرافعى، مصطفى صادق [١٢٩٧ ـ ١٣٥٦هـ ١٨٨٠ ـ ١٩٣٧] من كبار الأدباء والكتاب والمفكرين المدافعين عن؟؟؟؟؟؟؟؟.

من مرض فى جسمه، خسارة فى ماله، فقد فى ولده، فإذا بقيت عليه سيئة ثَقَلْتُ عليه سكرات الموت حتى يأتينى كيوم ولدته أمه.. وعزتى وجلالى لا أخرج عبدى من الدنيا وقد أردت به الشر حتى أو فيه ما عمله من الحسنات، من بركة فى جسمه، وبركة فى عمله وبركة فى ماله، وبركة فى ولده، فإذا بقيت له عندى حسنة خففت عليه سكرات الموت حتى يأتينى وليست له حسنة».

إذن الإنسان عندما ينظر إلى الأشياء المتعبة المؤلمة فى مصائب الدنيا وفى أحداثها أنها بهذه المثابة أنها بمثابة غسول وتطهير له لتكون الحياة الباقية حياة نظيفة حياة عالية هل يحزن الإنسان من هذا؟ لا يحزن يستقبلها استقبال الراضى بقدر الله فيه الراضى بحكمه وأنه لم يجر عليه شىء إلا لمصلحته.

إنسان عنده هذه العقيدة كيف يواجه الحياة؟ يواجه بكل قوته لماذا؟ لأن الذين ليست عندهم عقيدة حينما[1] تفاجأهم الأحداث طاقة كبيرة من طاقتهم تضيع يصيبهم شىء من الانهيار، طاقة من فكرهم تضيع، إذن يواجهون الحياة وحركتها بطاقة غير كاملة وبفكر غير كامل، فإذا كنت فى الأول لم تقدر عليها وأنت بطاقتك المجمعة وبفكرك الكامل فكيف إذا أضعفتها أنت؟ أضعفت طاقتك وأضعفت فكرك يبقى ستواجهها مواجهة أقل.

لكن المؤمن لا... المؤمن من ينظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى «وأنتم الأعلون أن كنتم مؤمنين» ما دام أنت مؤمن وصلتك الإيمانية حسنة بربك يبقى أعتقد أنك عالى، انهزمت أنت عال، أصبت بأى شىء أنت عال، أنما أنت حين ينحل فيك ركن من الإيمان تخور، لا تخور إلا إذا كنت غير مؤمن، لكن إذا كنت مؤمنا لا تخور أبدًا.

ولذلك القرآن عندما يعرض علينا هذه المسائل.. سيدنا موسى صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه لما قال له قومه «أنا لمدركون» ماذا قال؟ بقانون البشر صح أم لا؟ قوم فرعون وراءه والبحر أمامه قانون البشر وقانون الأسباب وقانون المقدمات صح «أنا لمدركون» ماذا قال موسى عليه السلام قال «كان بملء فيه التفت إلى الرصيد القوى ولم يقل كلا بلا حيثية قال: «كلا أن معى ربى سيهدين».

---

(١) فى الأصل: حيثما.

قانون الناس هكذا سيدركونا يعنى سيدركونا، أنما عندما يكون معى ربى وسيهدين يبقى لن يدركونا، يبقى فاء إلى ركن ركين، إلى رصيد ثان، ولذلك ربنا حقق له أم لا؟ «اضرب بعصاك البحر» ضرب بعصاه البحر فكان كل فرق كالطود العظيم.. شىء عجيب هذا هو الرصيد كذلك يكون الإيمان.

إذن فالطائفة أو المؤمن من الذى يواجه الحياة فى أى عصر من العصور بالطاقة الإيمانية بهذه القوة يبقى عليه عمرًا وانتهت ولا تكون طاقة إيمانية إلا إذا ثبتت واستقرت وربط الطلب عليها أصبحت عقيدة ما معنى عقيدة؟ يعنى لا تطفو مرة أخرى على الذهن لتناقش من جديد، إن طفت على الذهن لتناقش من جديد لا يقال أنها عقيدة، يبقى ما زالت فكرة تبحث، فإذا ما انتهى من بحثها واستقرت تبقى هذه العقيدة.

فكذلك يريد منا الحق. ليست مجرد المعرفة تكون عقيدة، قد تعرف شيئًا إلا أنه يستقر فى نفسك استقرار العقيدة ولذلك تجد الحق سبحانه وتعالى يقول «ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله» ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله.. إذن هم عارفون أن الله هو الخالق.. «أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون» فما السبب؟ فيه فرق بين معرفة وعلم وبين يقين وبين عقيدة لم تصل فى نفوسهم إلى درجة أن تصير عقيدة تحكم سلوكهم فى الحياة، فإذا وصلت العقيدة إلى أنها مذكورة دائمًا وفى بال الإنسان دائمًا وتحكم حركة حياته أى عمل يعمله يتفق مع العقيدة أم لا؟ يرضى العقيدة أم لا؟ إذن علم شىء لا يعنى أنك اعتقدت به، وأنك تحمست له، وأنك سخرت كل تصرفاتك بناء على تلك العقيدة. فما الذى كان معلومًا عندهم، معرفه شىء، علم شىء، إنما إيمان ويقين بشىء لم يكن عندهم، لأن لو عندهم إيمان ويقين بشىء كان ممكن أن يدبروا حركة حياتهم على ذلك المركز.

إذن فالأساس الأول فى المنهج المتميز، المنهج الجامع لكل خير فى حركة الحياة هو أن يوجد الإيمان أولًا ولذلك لا يكره الله على الإيمان لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن تصدر الأعمال عن عقيدة فيك أنت، وإلا لو كان الحق يريد حركة منك يرغم المكره حركة المكره وقلبه غير مقتنع بها ولذلك تقرأ قوله تعالى

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ العبيد يرغمنى على أن أفعل فعلًا وقلبى يأباه لا أريد أنها هل يريد الله أعناقًا وأجسامًا وحركة هذا لا يملكه أعناقًا تبقى خاضعًا أنا لا أريد أشباحًا تبقى خاضعة أنا أريد قلبًا خاضعًا لماذا؟ لأن القلب سيحكم عليك أن تعمل رأيتك وكنت بمظهر من الناس أو كنت مختبئًا بينك وبين نفسك، قصارى ما يصنعه المكره أن يكره قالبك على فعل شىء ما دام مسيطرًا عليك، فإذا خلوت لنفسك فأنت حر حينئذ، لكن حين يكون المبدأ عن طواعية وعن اختيار وعن رضى يتحكم فيك المبدأ فى كل حركاتك قصارى ما يتطلبه المبدأ المكره عليه ماذا؟ أنك تحمى نفسك من أن تكون على عين من القانون فقط لكن المبدأ عندما تكون مقتنعًا به فستقبل عليه وأن كنت فى غفلة من القانون، والمكره على شىء معناه أنه حين يكره على سلوك من السلوك أول ما يحمل من المعانى أنه غير مقتنع هو بذات المبدأ هو نفسه غير مقتنع بأن هذا مبدأ صحيح لماذا؟ لأنه لو مقتنع بأنه مبدأ صحيح كان لا يأتى فى باله أن تعارضه الناس لأنه مبدأ سليم والناس لماذا تعارضه.. أنما هو يعرف أن المبدأ نفسه غير سليم ويقول إذا وضعت صوتى دون إرغام الناس عليه فلن يتمسك به أحد ولذلك تجد الحيثية فى قول الحق سبحانه وتعالى فى إرغام الغير «لا إكراه فى الدين» ما حيثية ذلك، لماذا ليس فيه إكراه؟ قد تبين الرشد من الغى، المسألة واضحة لا تحتاج إلى إكراه، إذن التى تحتاج إلى اكراه من البشر ما هى؟ المبدأ الذى يقول عنه أنا لو تركت الناس ولم أرغمهم بالقوة وبالسلاح وبالسوط لاعتناق هذا المبدأ لا يمكن أن يتبعه أحد لماذا؟ لأنه هو نفسه غير مقتنع بأن هذا مبدأ يتبع.

إذن أول شىء فى المبدأ أن يُستقبل برضى، يُستقبل باختيار، لأنه سيحكم كل حياتك ظاهرها وباطنها، مالك وما عليه. فإذا جاء الإيمان. بعد ذلك الإيمان فى ذاته ليس غاية، الإيمان فى ذاته وسيلة إلى أشياء.. ما دام آمنت بإله مواصفته أنه قوى. مواصفته أنك تلجأ إليه، مواصفته أنه صنع لك كل تلك القيم. مواصفته أن الناس كلهم بالنسبة له سواء. مواصفته أنه لا يشرع لخلق الله إلا الله، هو الذى يشرع. أنه كرمنى، أنه جعلنى كذا. ذلك الإله لابد أن أستقبل عنه منهجه، وأعمله حركة حياة، حركة حياة التى هى العمل الصالح.. يبقى انتقلنا من العنصر الأول إلى العنصر الثانى.

وبعد ذلك نترجمها إلى عمل صالح.. هذا العمل الصالح نرى ترجمته، فيه أشياء الحق سبحانه وتعالى طلبها منا، وفى ظاهر الأمر أنك لا ترى لبعضها فوائد عاجلة، وهى التى نسميها العبادات.. التعبديات. وبعد ذلك وضع لك فى نظام حركة الحياة معاملات. التى تنظم حركتك كفرد، وحركتك فى الأسرة، حركة المجتمع، حركة الإنسانية، علاقة الأفراد ببعضهم. هذه اسمها نظم.. لو لم يوجد أيضًا فكرة عن إله، الناس ستضعها لنفسها أم لا؟ نظام الحياة لو لم يوجد فكر عن الإله أتظل الحياة بلا نظم ما دام فيه مجتمعات لازم فيه نظم توضع.. إذن ما الفرق بين أمر تعبدى، ومعاملات؟ أن الأمر التعبدى هو الذى شرعه الحق لتقرب منه، وليظل فكرك فيه، وبالك غير منقطع عنه، وهذه الأمور هى التى يقال عنها فى الفقه الإسلامى أنها تعبديات.. لكن الأمور الأخرى التى تنظم المصالح تسمى المعاملات، المعاملات الأصل فيها أنها من نشاط الذهن البشرى، إلا أنه ما هى مهمة الشرع فيها؟ الصالح يبقيه، والطالح ينفيه، والذى فيه شبهة يعدله، هذه مهمة تشريع السماء.. ولذلك نجد الإسلام عندما جاء أقر كثيرًا مما كان عليه القوم فى الجاهلية. لماذا؟ لأن العمل فى ذاته لم يداخله فساد. وبعد ذلك جاء لأعمال فنهاها، وجاء لأعمال فعدلها.. لكن المنهج العبادى ليس من نشاط البشر، ولا عمل لذهن الإنسان فيه، وإنما الحق سبحانه وتعالى هو الذى يقول تقرب إلى بكذا وكذا.. إذن كما يقول العلماء الأصل فيه الحظر والمنع، إلى أن ينزل من الشارع، يقول أعبدنى بكذا. إذن ليس لى أن أعبد ربنا بطريقة لم يقل عليها إلا أن أتطوع بأمر موجود مثله، فرض على خمسًا ليس هناك مانع من أن أجعلها عشرين.. فرض علىَّ إخرج ٢,٥ فى المائة، إخرج خمسة أو عشرة أو على قدر طاقة الإحسان فى فرض على الحج مرة ليس هناك مانع أن أحج كل سنة أو كل عدة سنوات، فرض على أن أصوم شهرًا، لا مانع أن أصوم أكثر من ذلك. إذن العبادة فيها الحظر والمنع، لأنها الطريق الذى رسمه الله للتقرب منه، أما المعاملات هى الطريق الذى أقرها الله لنظام الحياة إذن فالأعمال تكون صالحة، إما لأن الله هو المشرع لها أو المقر لها.. فمن حيث العبادة هو المشرع لها ومن حيث الأمور الأخرى التى هى النشاطات الذاتية فى الحياة، هو مقر لها، ما ثبته نرضاه، وما نفاه ننتهى عنه، وما عدله نأخذ ذلك التعديل. هذا هو منهج الحياة، ولك بعد ذلك أن

تجول بعقلك فى الأمور التعاملية التى هى نشاطات الذهن. نأتى بقانون الله فى نظام الأسرة، قانون الله فى نظام المجتمع، فى الحكم، فى النظام الاقتصادى، فى النظام السياسى، وقارنه بأى قانون شئت فى الدنيا، ستنتهى بالتقنين إلى ذلك اسمى ما يمكن أن يصل إليه البشر. ونجد أن الظاهرتين الموجودتين فى العالم فى لون من حركة الحياة، نجد مثلًا الشيوعية والرأسمالية، هل الشيوعية ظلت كما قامت؟ أم بدأت تتحلل قليلًا من مبادئها؟.. تحللت من ـ مبادئها، لا ملكية، بدأوا يقولون فيه ملكية... لا حوافز، بدأوا يقولون فيه حوافز.. إذا تراجعت أم لا؟ إذن هناك فارق بين شىء نظرى وشىء تطبيقى، التطبيقى. يأوى أصحاب النظريات إلى أنهم يتنازلوا عن بعض نظرياتهم.. والرأسمالية ظلت كما هى مستبدة، أم بدأت تتجه للعامل وتعطيه بعض الحقوق وتتنازل؟ معنى التنازل من هذا الطرف معناه أن الاثنين يريدان أن يقربا ممن؟ متجهان إلى ماذا؟ متجهان بطبيعة تطبيق الأشياء إلى ما يلتقى مع الفكر الإسلامى، كلما يتقدمان قليلًا يلتقيان مع الفكر الإسلامى.. كل قانون فى الدنيا ينظم المجتمع تلتفت تجد كل خطوة تعديلية فيه تقربه من الفكر الإسلامى.. مثلًا الغرب الذى كان يعتبر من ضمن مسالب الإسلام، الطلاق إذن أباحوه غصبًا عنهم لأن ظروف الحياة أرغمتهم على ذلك. تعدد الزوجات، يبحث الآن عندهم لكى يعددوه، لأنهم رأوا الفساد المترتب على هذا المنع.. إذن هات أى قانون من قوانين تنظيم الحياة بالنسبة للفرد وللمجتمع وللأسرة.. إلخ ستجد أن أى قانون تقارنه بنظام الإسلام، تجد أن نظام الإسلام متميز، وسابق، ومستوعب.

لكن فى العبادات لا نقدر أن نقول فيها انطلاقات لماذا؟ لأن ربنا قال تقرب إلىّ بهذا الشأن.. ليس لى أن أزيد.. الأمر فى التعبديات يجب أن يكون البحث فى علته متأخر عن عمله، ما معنى متأخر عن عمله؟ يعنى أنت لا تقتنع بعلة الأمر التعبدى أولًا، وبعد ذلك تفعله.. كذلك ثقتك فى الله كثير من الأمور التى حرم الله.. كانوا يأكلون لحم الخنزير فربنا قال لا تأكلوا لحم الخنزير.. إذن كان عملًا صالحًا ربنا غيره، هل أنا كنت أؤخر عدم أكل الخنزير إلى أن يثبت عندى بالتحليل العلمى المعملى أن فيه فيروسات ضارة بالصحة الإنسانية؟ يعنى ذلك أننى كنت أعطل الحكم ١٤ قرنًا إلى أن يأتى عصر التحليل.. لا.. أنا سمعت كلام ربنا لأننى واثق من حكمته..

يبقى إذن الأعمال الصالحة تنقسم قسمين: قسم تعبدى، وقسم تبدو له علل، وهى المسائل التى تربط نظام المجتمع. وأشياء من نظام المجتمع. وأشياء من نظام المجتمع علتها فى التشريع الإسلامى لم تكن ظاهرة أولًا، إلا أن علتها ظهرت فيما بعد، لما تظهر علة فيما بعد لأمر لم تكن له علة، ماذا يعطيك ذلك؟ يعطيك الثقة فى أوامر الله، وأن الأشياء الغائبة علتها عنى هى لها علة فى الحقيقة، أنما لم تواتينى الظروف لكى أدرك هذه العلة.. فكل شىء ستقبل من الله يجب أن يكون إيمان المؤمن به أنه فعل لأن الله أمر، وترك لأن الله نهى.. ذلك هو الإيمان وأما الذى يقبل على الأمر لعلته، مثلًا إذا ذهبت إلى طبيب وأنا مش مؤمن بالله والعياذ بالله واحد غير مؤمن بالله يذهب للطبيب وقال له لن تشفى من المرض إلا إذا امتنعت شهرًا عن الطعام. هل يمتنع أم لا، يمتنع.. إذن امتنعت للعلة أو للأمر! امتنعت للعلة، الإسلام ليس كذلك.. الإسلام أنت تمتع لأن الله أمر، لأن الله قال، وأنت واثق فى هذا إله حكيم إذن الحق سبحانه وتعالى المؤمن به حينما تكونت عنده العقيدة الإيمانية يقبل على منهج الله، وقال أم لم يقل فإن كان قال فليقبل على المنهج الذى من الله بيقين أن ذلك مفيد له. ما هى جهة الفائدة؟ يمكن لا أدركها، يمكن تدركها فيما بعد.. كذلك العبادات تقبل على الله لأن الله أمر، وتمتنع عن الأفعال لأن الله نهى.. لا تتعب طاقتك، وتبددها فى بحث علل الأشياء، وإلا كأنك رجعت عن العلة الأصيلة فى الإيمان استصحب العلة أنك آمنت بالله بعقلك، وأنه حكيم وأنه قادر، وأنه لا تخفى عليه خافية. أستقبل كل حكم من الله بذلك. فإذا استقبلت ذلك يبقى العمل الصالح الذى تقوم به، واثق مائة فى المائة من نتيجته تبقى لم تعمل العمل الصالح عملية المقامر ينفع أو لا ينفع؟ لا.. ينفع أو لا ينفع هذا إذا كنت مستقبله عن بشر يجهل الأشياء، أنما ما دام هذا ثابتًا عن الله يبقى أقبل عليه لأنى متيقن أن فيه فائدة. هب أن فائدته أخطاتنى الآن، يبقى فائدته لا تخطئنى فى المستقبل، لأن الدنيا ليست هى كل شىء.

فإذا جاء الإيمان، وجاء العمل الصالح، بقيا.. غفلات النفوس تغفل كثيرًا.. لماذا؟ لأن المنهج الذى حدد حركة حياتك ويحدد حركة شهواتك، قد تغفل نفسك عن بعضه، وما دام غفلت نفسك عن بعضه، يبقى أنت فى حاجة إلى من ينبهك. يبقى

ستواصى بالحق يقول لك: أنت تعمل هذه لماذا؟ تذكر كذا كذا وفى كلمة تواصوا لم يجعل موصين وموصين، بل كل واحد منا كما قلنا فى التكاثر مُوصِى مُوصَى. لماذا؟ لأنى تصادفنى غفلة تكون عندك أنت يقظة فتنبهنى أنت، تصادفك غفلة يكون عندى أنا يقظة فأنبهك.. أذن معنى تواصوا يعنى كل واحد منا مُوصِى ومُوصَى.

وبعد ذلك نستهين بالعقبات.. نصبر، ونصابر ونرابط.. فإذا ما كنا قد جمعنا العناصر لذلك المنهج الإلهى إيمانًا، وبما يستلزمه الإيمان به، وعمل صالح، سواء كان عملًا تعبديًا أو عملًا ينظم حركة الحياة، ثم لم نغفل عن مبدأ من مبادئ الحق وذلك بالتواصى عليه، ثم لم نهن أمام حدث من أحداث الدنيا، فنتواصى بالصبر، نكون ممن استثناهم الله من الخسران، فإن تهاونا فى مبدأنا لنعتقد أن هذا التهاون سيجعلنا من أهل الخسران والعياذ بالله...

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوجهنا إلى ما فيه الخير، من إيماننا.. وعملنا الصالح بالحق وتواصينا بالصبر.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

تابع تفسير سورة العصر
لفضيلة الشيخ / محمد متولى الشعراوى

أحمدك ربى واستعينك، وأصلى وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد، فقد انتهينا فى لقائنا السابق إلى أن سورة (العصر) قسم بقوله سبحانه: (والعصر) ومقسم عليه وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ وقلنا أيضًا أن قسم الله سبحانه وتعالى بأى شىء إنما يكون فى محل الدليل ما يقسم عليه. فكأن قول الحق: (والعصر) دليل على صدق القضية التى أقسم عليها، وهو «إن الإنسان لفى خسر» وبينا العلاقة بين العصر وبين ما أقسم عليه الحق سبحانه وتعالى، كأنه يقول: أنا لا ألقى كلامًا نظريًا، ولكنى أقول كلامًا يؤيده واقع العصور والدهور. فلو نظرت إلى كل عصر، وإلى كل دهر، ووجدت مبدأ ساد، ونجح[1]، فاعلم أنه استكمل هذه العناصر: عنصر الإيمان الذى يملأ القلوب عقيدة. وعنصر العمل الذى يترجم مبادئ العقيدة إلى سلوك، وعنصر التواصى بالحق، وعنصر التواصى بالصبر.

فإذا رأيت طائفة قد نجحت فى مهمتها فى عصر من العصور، فاعلم أنها قد استوفت عناصر تلك[2] المبادئ الأربعة. وإذا رأيت فى عصر من العصور قومًا انحطوا ولم يسيروا فى فلاح، بل ساروا فى خسر، فاعلم أن عنصر[3] من هذه العناصر

(١) فى الأصل: ساد، ومبدأ إفساد ونجح.
(٢) فى الأصل: ذلك.
(٣) فى الأصل: عنصر.

قد اختل. إما أن لا توجد عقيدة، أو توجد عقيدة ولم تترجم إلى عمل، أو وجد عمل ولم يوجد فيه تواصى بالحق، أو وجد الثلاث صور ولم يحصل فيه تواصى بالصبر.

ووقفنا عند قول الحق سبحانه وتعالى «وتواصوا بالحق» قلنا: التواصى معناه بذل النصح والمعونة من الناصح للمنصوح، ليتمسك بمبدأ مسلم، هذا المبدأ المسلم الذى هو المبدأ الإيمانى أو المبدأ السلوكى. والسبب فى ذلك أن التواصى بالحق يعتبر العنصر الثالث من عناصر الدعوة الناجحة، إن المبادئ عادة إنما تقيد حركات الإنسان، والإنسان يجب أن تكون حركته طليقة لتحقق له مشتهيات نفسه، فتأتى المبادئ لتحكم هذه الحركة. ما دامت المبادئ جاءت لتحكم هذه الحركة، تصير تكليفًا، والتكليف من عناصره المشقة. وقلنا سابقًا أن الذى يهون مهمة التكليف ومشاقاته استحضار الجزاء على التكليف فلا نأخذ التكليف أولًا بمشتقه، ولكن نأخذ التكليف بغايته ونهايته وجزائه. فإذا ما نسبنا الغاية والجزاء الضخم أمام أى تكليف وجدنا الغاية أرجح من مشقة التكليف، والسبب أن كثيرًا من الناس يحجمون عن مشقات التكليف لأنهم ينصبون فقط أمام نفوسهم المشقة التى يعانونها من التكليف، ولو أنهم استحضروا النهاية والغاية أمام التكاليف، لهانت عليهم هذه المشقات، لأن المقارنة ترجح الجزاء على التكليف عن مشقة التكليف. وما دامت التكاليف[1] فى بدايتها شاقة، إذن.. فغفلة النفس دائمًا موجودة مع التكليف. يعنى أكذاب المرء نفسه، ليس كل يقين يقبل الإنسان عليه. هناك ألوان كثيرة من الأشياء اليقين موجود فيها، أنما حمل النفس على مطلوب اليقين غير موجود. فمثلًا يقول ﷺ: (لا أرى يقينًا أشبه بالشك من يقين الناس بالموت) هل هناك من يشك فى أن الإنسان يموت؟ يقين، قضية يقينية، الواقع يؤيدها. ولكن غفلة الناس عن مطلوبات الموت، جعلتهم كأنهم فى شك من حدوث الموت. إذن فاليقين ليس هو كل شىء، بل يجب أن يستحضر اليقين دائمًا ليكون منهجًا منصوبًا أمام العين بحيث لا يغفل الإنسان.

وأتذكر أننا قلنا مرة: أن المناهج الربانية التى تقيد حركة الإنسان فى تصرفه، النفس حينما تغفل عنها، تغفل عنها فى جزئيات بسيطة، فإذا ما طاوع الإنسان نفسه وجاءت

(١) فى الأصل: التكليف.

جزئيه أخرى بجانبها ثم غفلة ثالثة تجىء ثالثة، ثم غفلة رابعة إلى أن يحدث الران الذى يقول الحق فيه «كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون» وضرب رسول الله ﷺ المثل فى الحديث الذى رواه أبو حذيفة قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهم وأنا أنتظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت فى جدر الرجال (يعنى تمكنت من قلوبهم) ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة. ثم حدثنا عن رفع الأمانة (أى المغروسة فى القلوب) قال: ينام الرجل النومة (أى يغفل الغفلة) فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت (الوكت هو الأثر الذى يحدث من ملاقاة حرارة النار للجسد، الذى يحصل فيها لون مخالف) ثم ينام النومة الثانية فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر المجل (المجل ليس الحرارة تصيب الجلد، بل الجمرة نفسها تقع على الجلد فلما تقع على الجلد ماذا تحدث؟ تعمل بقبيشة) ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظهر أثرها مثل أثر المجل كمجرد دحرجته على رجلك فنفط (ارتفع) فتراه منتبرًا[1] وليس به شىء فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد يوجد أحد منهم يؤدى الأمانة، حتى يقال: أن فى بنى فلان رجلًا أمينًا (بلغ من ندرة الأمانة أن يتحدث بالرجل الأمين فى بنى فلان) وحتى يقال للرجل ما أظرفه، ما أعقله، ما أجلده وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان. (أى تنقلب المقاييس ولم يعد الإيمان فى مقومات الإنسان) قال: وقد مر على زمان وما كنت أبالى أيكم بايعت (يعنى أتعامل مع الناس وأنا مغمض العينين لا أدقق فى معاملتى مع الناس، لأن الناس كلهم أمناء) لأن كان مؤمنًا ليردنه على إيمانه (يعنى أن حصل غلطة إيمانه يبعته) ولأن كان يهوديًا أو نصرانيًا ليردنه على ساعية، أما اليوم (وهذا كلام أبو حذيفة) فما كنت أبايع منكم إلا فلانًا وفلانًا. ما منشأ هذا؟ منشأ هذا تسرب الأمانة من القلب بالغفلة عن الشىء الصغير، ثم يغفل عن شىء آخر، تتراكم هذه الغفلات فتكون الطبقة التى ترين على القلب..

يشرحها أبو حذيفة فى حديث آخر فيقول: كنا جلوسًا عند عمر فقال: أيكم يذكر الفتنة؟ فقال القوم جميعًا: كلنا يذكرها.

قال عمر، وقد استكثر أن يكون جوابه عن جميع الناس: لعلكم تعنون فتنة الرجل فى أهلة وماله؟

---

(١) منتبرًا: أى متورما.

قالوا: نعم..

قال: لا، تلك تكفرها الصلاة ويفكرها الصوم. وأنما أعنى الفتن التى تموج كموج البحر. قال حذيفة: فقلت أنا.

قال: أنت؟ لله أبوك.

قال: حدثنا رسول الله ﷺ قال: (تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا (نعرف كيف ينسج الحصير، تشد الفتل ثم نجىء بعود ونعمله وبعدين تجىء بعود وتعمله بجانبه حتى تكون الحصيرة) وفى رواية عودًا عودًا. وفى رواية عوذًا عوذًا. فأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، وأيما قلب أشر بها نكتت فيه نكتة سوداء حتى تكون على قلبين: على أبيض مثل الصفاء لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مرياد كالكور مجخيًا (أى منكوسًا) لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا. وحدثته أن بينك وبينها بابًا يوشك أن يُكسر.

قال عمر: أكسر لا أب لك؟ لعله يفتح ثم يعود.

قلت: بل يكسر. وحدثته أن ذلك الباب رجل يقتل حديث ليس بالأغاليظ.

كل شاهدنا فى هذا التحلل[1] من المنهج لا يأتى دفعة واحدة، ولا يأتى تحللاً من الران الذى يحجب الإنسان عن منبع عقيدته، وبذلك يكون سلوكه سلوكًا ظلمانيًا. فما لم يوجد التواصى بالحق؟ يعنى كلما رأينا إنسانًا غفل عن جزئية من جزئيات دينه، ننبهه. وسماها (تواصى) لم يسمها أمرًا. لماذا؟ لأن الوصية عادة تحمل معنى النصح من المحبوب للمحبوب، فأنت لا توصى إنسانًا إلا إذا كنت تحبه، وهو يوقن أنك تحبه، لكن هذا المحبوب يختلف باختلاف الناس. هذا المحبوب قد يكون دينًا وقد يكون دنيا. إذن المحبوب الأول بأن يكون موضع الوصية من المحبوب للمحبوب يبقى أمرًا محبوبًا، الذى يوصى به محبوب، المرضى به محبوبًا.

لما تنظر للوصية تجد حق الحق هو منهج الله. الحق فيه ألوان كثيرة، وحقه هو منهج الله، والوصية من المحبوب للمحبوب تكون أوجهها كثيرة: توصية بأن يكون

(١) فى الأصل: التحليل.

حسنًا فى تجارته، فى زراعته فى علاقته بالناس، فى مداركته لكى ينجح. توصية بأشياء كثيرة. هذه صحيح أشياء محبوبة ولكن قمة المحبوبية فى أن يكون التواصى دائمًا بمنهج الله وهو الحق. ولذلك حينما عرض القرآن هذه الكلمة التى هى وصية تجد ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ وللوصية وقت، هذا الوقت متسع فى كل زمان مضى، ولكن تجد الوصية تبقى محكمة حين يضيق المحتضر ويعلم أن الموت جاء له، وبعد ذلك يركز أهم شىء فى الوجود ليوصى به أبناءه، لأن الوقت ضيق، هو يحتضر وروحه تطلع فليس عنده وقت لكى يجىء بكل ما يمكن أن يوصى به، فيختار قمة الوصايا، التى هى المبادئ التى بتجربته فى الحياة ويجب أن ينقلها إلى بنيه وهم أحبابه، يقولها فى هذا الوقت، كأن سكرات الموت والاحتضار لم تشغله عن أنه يلقى بهذه النصيحة إلى من يحب.

﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ ﴾ وهو فى ساعة الموت ﴿إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِى ﴾ كأن أهم حاجة يتركها يعقوب لبنيه أن يطمئن على منهجهم العبادى، لم[1] يطمئن على مصائر دنياهم، لم[2] يطمئن على أحوالهم، لم[3] يطمئن على أرزاقهم، لم[4] يطمئن على شىء مطلقًا، بل أراد أن تكون هذه هى المسألة ﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِى قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ وصية فى وقتها، ويعرض الحق سبحانه وتعالى أيضًا الوصية من الآباء، لأن الأب إن غش الناس جميعًا ما يستطيع أن يغش أبناءه. يريد أن يعطى لهم المنهج السليم الذى جربه فوجده نافعا فى الحياة. هناك فى مسألة لقمان ﴿ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ ﴾ يا بنى، يا بنى، يا بنى، وصية أب لابنه، والأب لا يغش ابنه، يريد أن يعطى له خلاصة ما أخذه، وخلاصة تجاربه.

إذن فالوصية بالمحبوب، من المحبوب، إلى المحبوب، أحسن أوقاتها هو الوقت الذى يفارق الإنسان فيه الحياة. لماذا؟ لأن هذا وقت إن كان يكذب زمان، لا يكذب

---

(١)، (٢)، (٣)، (٤) فى الأصل: ثم.

فى هذا الوقت، ويستحضر قمة الأشياء التى يعتبرها نافعة لأحب الناس وهم أبناؤه، لكى يزودهم بالمنهج النافع.

والوصية بالحق تأخذ طابعها القوى فى ناحيتين: الناحية الأولى مثلها الخليفتان الراشدان: أبو بكر وعمر رضوان الله عليهما، حينما توليا أمر المسلمين. تولية أمر المسلمين قد يعطى فى بعض ضعاف النفوس مهابة الولاية، وخصوصًا ولاية أبى بكر وولاية عمر، تجعل الرعية تهاب مكانهما من رسول الله، ومكانهما من الإسلام، فربما تصرفا تصرفًا قد يكون فيه شىء من الغفلة فهو يوجه الوصية والنصح إلى الرعية المحكومة به. الرعية المحكومة به يجب أن تتقبل كل أعماله تقبل الناقد الصيرفى، لا تقول هذا لأنه أبو بكر لا تقول هذا لأنه عمر. بل تأخذ أعمالهما وتنقدها النقد، فإن كان مطابقًا لمنهج الإسلام، أيدوه، وإن لم يكن مطابقًا لمنهج الإسلام، يبقى خرجوا عليه وثاروا وكلموه. لذلك تجد سيدنا أبو بكر يقول: قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى. لا طاعة لى عليكم فى معصية الله.. يعنى أعطى لهم المنهج، يبقى إذن لا أحد يتهيب. ويجىء أيضًا عمر رضى الله عنه ويعطى هذه النصيحة لأنه خاف أن يتهيبه الناس فيجدونه على عمل من الأعمال فلا يجترئون أن يردوه عليه. فماذا قال لهم أيضًا؟ قال: أن رأيتم فىَّ خيرًا فأعينونى، وأن رأيتم فى اعوجاجًا فقومونى.. فلما قام له الرجل الذى فهم منطقه وفهم ما يريد فى هذا الموقف قال: والله لو رأينا فيك اعوجاجًا لقومناه بسيوفنا. فضحك عمر وقال: الحمد لله الذى جعل فى أمة محمد ﷺ من يقوم اعوجاج عمر بسيفه.

مبادئ، هذه المبادئ للخليفتين أيقظت[1] شعور الرعية المحكومة بهما، أنهم لا تأخذهم مهابة هؤلاء الخلفاء، بل ينقدوا أعمالهم ويروا كيف يتصرفون.. ولذلك كانت مهمة أى وإلى عام حينما يولى الولاة الخاصين أول ما يزوده، يزوده بالنصيحة. لماذا؟ لأنها نصيحة من يملك إذا خالف أن يناله بسوء، لأنه هو الذى ولاه. فيعطى له المبدأ. وكانت المسافة طبعًا بعيدة بين الولايات، ووسائل التراسل لم تكن سهلة،

(١) فى الأصل: يقظتا الخليفتان.

وإقبال المظلومين إلى الوالى العام لم تكن ميسرة. فلابد أن يتوجه الوالى الخاص فى البقعة الخاصة مزودًا بالنصائح الكافية، وموصى التوصية اللازمة.

مثلًا نجد الإمام على رضوان الله عليه يولى مالك ابن الأشتر[1] ولاية مصر فلما حزم أمتعته ووالخ جعل آخر كلامه له: أعلم يا مالك أنى قد وجهتك إلى بلاد قامت فيها دول قبلك بالجور والعدل. (يعنى أنت لست أول وال، هؤلاء الناس جربوا ولاة كثيرين منهم عادلون ومنهم جائرون) وأن الناس (يعنى الرعية التى تحتك) سينظرون من أمرك فى مثل ما كنت تنظر إليه من أمور الولاة تلك (أنت كنت الأول محكومًا من الرعية، فكان لك آراء فيمن يلى عليك، الأمر سينقلب) ويقولون فيك مثل ما كنت تقول فيهم (كلام واضح وهذه مسألة أنت جربتها وتعرفها) وأنما يستدل على العباد بما يجرى الله على ألسنة عباده (كلمة من هذا وكلمة من هذا فتتكون الصورة عن طبيعة العباد) فاليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح (هذه هى أول توصية) وأشعر قلبك الرحمة بالرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكن عليهم سبعًا ضاريًا تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: أما أخوك فى الإسلام، وأما نظيرك فى الخلق (يعنى أنت تحكم اثنين: مسلم، ونظيرك فى الخلق غير مسلم يفرط منهم الزلل، وتغلب عليهم العلل، ويؤتى على أيديهم من العمد والخطأ (يعنى خطائين) فاعطهم من عفوك وصفحك مثل ما تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم ووالى الأمر عليك فوقك، والله فوق من ولاك).

مراتب!! نصيحة يوصى بها الوالى، لأن الوالى إذا صلح، صلح به شىء كثير.

لدرجة سيدنا الحسن البصرى[2] يقول: لو أن لى عند الله دعوة مستجابة، لخصصت بها السلطان. فقيل له وكيف؟ قال: لأن الله يصلح على يده الشىء الكثير.

إذن فالنصيحة والتوصية هى التنبيه الدائم للتمسك بمنهج الحق. لكن قد تعترض

---

(١) الأشتر النخعى، مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعى [٣٧هـ ـ ٦٥م]. من كبار الشجعان. حارب مع على ضد معاوية. وولاه على مصر، وكتب له كتابًا هو وثيقة فى الإدارة وسياسة الرعية.

(٢) الحسن بن أبى الحسن البصرى [٢١ ـ ١١٠هـ ٦٤٢ ـ ٧٢٨م] من كبار أئمة التابعين وفلاسفتهم وزهادهم.

النصيحة والتوصية أشياء تحول بين الإنسان وبينها. ذلك خاضع لعظمة النفس الناصحة. ما هى العقبات التى تحول؟ فيعرض لنا التاريخ الإسلامى قممًا من قمم العقبات، من قمة الولاة الكبار، ويأتى الإنسان فيجابهه بكلمة الحق ولا يبالى به، من الجائز أن يتقبلها ومن الجائز أن يدخرها فى نفسه ليستغل أى فرصة وينكل بالناصح.

أيضًا ما أثرَّ ذلك فى الناصحين أبدًا، ولا يبالون. مثلًا ابن السمان يدخل على المهدى[1]، وقليلاً ما كان يدخل، طلب المهدى كوب ماء، فقبل أن يشربه المهدى، قال له: بالله عليك يا أمير المؤمنين لو منع عنك هذا الكوب من الماء، بكم كنت تشتريه من ملكك؟

قال: أشتريه بنصف ملكى.

قال: فإذا منع خروجه منك، فبكم كنت تشترى إخراجه؟

قال: بالنصف الباقى..

قال: أن ملكًا لا يساوى شربة ماء لحقيق أن يزهد فيه.

بكل جرأة يقولون النصيحة والتوصية ولا يبالون بماذا تكون النتيجة. وتاريخ الإسلام مملوء بهذا مثلًا هذا سعيد بن المسيب ناله ما ناله بمجرد نصح. هذا مثلًا سعيد بن جبير ناله ما ناله. الإمام مالك ناله ما ناله الإمام الشافعى ناله ما ناله. ابن حنبل ناله ما ناله أبو حنيفة ناله ما ناله، ومع ذلك ظلوا على مواقفهم. ومن العجيب أن يجىء الاضطراد فى النسق الذين أخذنا عنهم نحن منهجنا لكى يطمئنك إلى أن هؤلاء لم يغيروا شيئًا فى منهج الله وآلوا واجتهدوا بدليل أن الولاة مع جبروتهم ومع ظلمهم لم يستطيعوا أن يخرجوهم عن حكم يرون أن ذلك هو حكم الله.

إذن فمعنى ذلك لما ترى استنباطاتهم. ترى مثلًا اجتهاداتهم، تكون مطمئنًا على أنهم لم تلوهم قوة، ولم يلوهم هوى، ولم يلوهم غرض.

يبقى ينشأ من التواصى بالحق مسألة أخرى وهى أنهم لازم يتواصوا بالصبر. تجد

(١) المهدى، محمد بن المنصور [١٥٨ ـ ١٦٩ هـ ٧٧٥ ـ ٧٨٥م] ثالث الخلفاء العباسيين.

مثلًا فى أثناء محنة سيدنا ابن حنبل، فى محنة خلق القرآن التى قامت أيام المأمون، وظلت أيام المعتصم وبعد ذلك فترة من أيام الواثق، ثم أنهاها. كل الناس فتنوا فقالوا برأى الدولة، وحين تطلب الدولة رأيًا على أنه رأى الدولة، يبقى يا خسارة الإسلام ويا ضيعته. الدولة ترى أن هذا كلام المعتزلة ويجب أن يؤيد فقالت: إن القرآن مخلوق. العلماء بعضهم أجاب بتورية، وبعضهم وافقهم، وبعضهم وقف. ممن وقف آخر من وقف محمد بن نوح، وسيدى الإمام أحمد بن حنبل محمد بن نوح قبل ما يجىء له التغريب كان الله قد قضى فيه وانتقل إليه. سيدى أحمد بن حنبل هو الذى تلقاها. وبعد ذلك أخذوه ليصنعوا فيه ما صنعوا. فجاء له ابن الأنبارى، واحتال عليه ودخل. قال له: يا إمام لم يبق سواك من علماء المسلمين من يقف إلى جانب الحق وإنك إن أجبت تقية (يعنى إجابة تتقى به العذاب) والجهال لا يعلمون التقية، فكيف يعرفون الحقيقة. يا إمام أصبر على ما ينالك.. هذه وصية ابن الأنبارى. بعد ذلك ادخل السجن ودخل عليه عمه إسحق بن حنبل فقال: والله يا عم، ما أخاف السجن فهو مثل بيتى، وما أخاف الموت، فهو إلى ربى، ولكن أخوف ما أخافه السياط، مخافة أن تخور نفسى وتضعف. يبقى إذن هو لم يخف من الألم لذات الألم، خايف أنه لا يتحمل فإذا لم يتحمل يمكن يقول كلامًا خطأ. فبينما هو يقول ذلك لعمه إسحق، إذا برجل من المسجونين معه يقول له: يا أبا عبد الله، لا تخف فإنما هما سوطان ثم لا تدرى ما يقع عليك بعدهما. يعنى واحد جرب أول ما يرب سوطان، جسمه الدم يتوارد ويتخدر. فقال: يا أبا عبد الله لا تخف فإنما هما سوطان ثم لا تدرى ما يقع عليك بعدهما.

ذلك تواصى بالصبر. إذن فالمنهج الحق يجب أن يحاط بتواصى بالحق حتى لا تتسرب الغفلة. ويتواصى بالصبر، حتى لا ينهار الإيمان أمام الاضطهاد. فإذا وجد فى مبدأ من المبادئ تلك العناصر فاعرف أنه حق. وأنت إذا استقرأت الإسلام وتاريخه، وجدت الإسلام يقوى ويضعف باكتمال هذه العناصر، حينما كانت هذه العناصر كلها مجتمعة، كان الإسلام والمسلمون فى نجاح وفى فلاح. وحينما انحل نال[1] المسلمون انحلال عملى أو انحلال عدم تواصى بالحق، أو انحلال عدم تواصى

(١) فى الأصل: مال.

بالصبر ماذا كان؟ كان ما نراه الآن من أن الإسلام بدأ فى عهد غربته. إذن فالحق سبحانه وتعالى كأنه قال لنا: التاريخ أعظم شاهد. الإنسان نوعان: نوع خسر، ونوع فى نجاح. أما الذين فى غير خسر أى فى نجاح فهم الذين تكتمل فيهم هذه العناصر: إيمان، وعمل صالح وتواصى بالحق، وتواصى بالصبر. فإذا رأيت قومًا فى غير نجح أى قومًا فى خسر فابحث لتجد السبب تخلف واحد من هذه العناصر.

تفسير سورة الهمزة
للشيخ محمد متولى الشعراوى

وبعد ذلك ينقلنا الحق سبحانه وتعالى إلى قيمة أخرى من قيم الحياة، توجد فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾.

هذه السورة تعطينا القيمة التى يعتد بها فى ظاهر الحياة، وهى قيمة المال. وتريد أن تعطينا صورة أن صاحب المال إذا ما جاء عنده، اختلت موازينه فى تقييم الناس، وأصبح من لا مال عنده فى النازل، والذى له مال فى الصاعد، هذه النظرة الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إليها لفتة تقوّم من رأينا[1] فيها، فيقول الحق سبحانه وتعالى «ويل» وكلمة الويل هذه قلنا فى كل مدلول لغوى، أن يبقى لها مدلول لغوى، وبعد ذلك يبقى لها مدلول اصطلاحى، والمدلول الاصطلاحى الذى يعنيه ربنا هو غير المدلول اللغوى الذى نفهمه. مثلما قلنا فى (القارعة) فيه مدلول مفهوم لغة، ومدلول آخر اصطلاحى. ولذلك لما يجىء الحق سبحانه وتعالى لكى يأخذنى من مدلول اللغة ومن متعارف اللسان، يأخذنى إلى المدلول عنده فيقول «وما أدراك» لعلك تدرى أن مثلًا (القارعة) أو تدرى أن (الحاقة) أو تدرى أن (الحطمة) هى فى المعنى اللغوى الذى عندك؟ لا.. ليس هذا هو المعنى المقصود بل المقصود معنى آخر.

ولذلك قال: بعضهم الويل واد فى جهنم من أقسى الوديان. وحين يتوعد الحق،

(١) فى الأصل: رأينها.

يبقى واقع أو غير واقع؟ حين يتوعد الحق القادر على إنفاذ ما يتوعد به، يبقى أمر واقع. فكأنك يجب أن تستحضر الصورة على أنها واقعة. لأن الذى يهدد الإنسان بأمر، الذى يكون شفيعًا لنفس فى أن لا تعبأ بالتهديد ماذا؟ الأمر الأول أن الذى هدد لا يضمن أنه سيظل إلى أن يوقع ما هدد به. الأمر الثانى أنه لا يملك أن تظل له القوة المهدد بها. الأمر الثالث أننى يمكن إلى أن يجىء التهديد يقع أكون أنا أحسن منه وأقوى. آمال كثيرة جدًّا. لكن إذا كان الذى يقول «ويل» ويهدد به باق، وقادر على إنفاذ ما يقول، ولن تفلت أنت من يده. ما معنى ذلك؟ معنى ذلك أن هذا وعيد من صنف آخر. وعيد ممن يقدر على انفاذ ما وعد، وعيد ممن لا تتسرب إلى نفسك آمال فى أنه يمكن ينتهى، وعيد ممن لا يمكن أن تخرج عن ملكه وسلطانه. يبقى مسألة مقفلة تمامًا. يبقى ليس مطلق «ويل» ليس مطلق عذاب، إنه عذاب خاص ممن؟ من الله. إذن فتهديد يجب أن يصحب بمقوماته حتى يعطى الهيبة فى النفس منه.

«ويل لكل همزة لمزة» بناء فُعَلَه، الشىء الذى على وزن فُعَلَه، يقال مثلا: فلان ضحكة. وفلان ضحكة مرة تجىء بفتح الوسط ومرة تجىء بإسكان الوسط. فالضحكة هو الذى يصدر الضحك منه على الغير. ففلان ضحكة أى الضحك من الغير عليه. وكذلك (همزة) وكذلك (لمزة) لكن يقع الحدث منه كثيرًا؟ قال: كثيرًا مبالغة «ويل لكل همزة» ما هو الهمزة، هو الذى يهمز الناس. يعنى يعيبهم. إما أن يعيب خلقهم، وإما أن يعيب وضعهم الاجتماعى، وإما أن يعيب تصرفهم ويلمزهم، أى يأتى بالشىء الذى فيه لمز، مرة يكون باللسان، ومرة يكون بإشارة العين ومرة يكون بتقليد الحركة. إذن فالهمزة اللمزة هو العياب. الغماش، الذى يسيئ إلى الناس أما بعينيه، وأما بلسانه، وأما بالتعرض بحركاتهم. فلان يمشى مشية فيجىء واحد ويقلده فى مشيه. فلان يطلع له لسانه، فلان يغمز له بحاجبه. يبقى هذا اسمه «همزة لمزة».

إنه يريد أن يعطينا الحيثية ما الذى جعله ينزل إلى هذا المستوى ويعيب الناس فى مسائلهم، إنه فاهم أنه صنف آخر من الناس. ما الذى جعله أنه يفهم أنه صنف آخر من الناس. ما الذى جعله أنه يفهم أنه صنف آخر من الناس؟

والمال الذى عنده «يبقى» (ويل لكل همزة لمزة * الذى جمع مالًا وعدده)، ما معنى وعدده؟

يعنى أحصاه، كل ساعة يطمئن نفسه على ماله مثلما يعمل البخلاء. عنده مال، فيغلق على نفسه الحجرة ويأخذ فى عد ماله.. أو «عدده» يعنى جعله عدة له فى كل شىء. من الإعداد يعنى «ويل لكل همزة لمزة» أتلك الحادثة تعرضت لواحد بخصوصه؟ قال: وأن كانت أخنس بن شريك الثانى الثالث، لا يهم أن تكون فى واحد مخصوص أنما المهم فى انطلاق المبدأ ليستوعب ما شاء له من الاستيعاب. لأنه لو أراد أن يتكلم عن شخص مخصوص كان من الممكن أن يذكره مثلًا يوصفه المعبر أو باسمه. لما تكلم عن واحد مخصوص قال«تبت يدا أبى لهب وتب». إذن فهناك أمر مناط الحكم فيه الوصف، وأمر مناط الحكم فيه الشخص. ما الفرق بين الاثنين؟ الذى مناط الحكم فيه الوصف، يبقى شائعًا فى أفراد كثيرة، لا يقيده التشخص الوصفى. إنما الذى مناط الحكم فيه الشخص ليس له إلا ذلك الفرد. يبقى مناط الذم، ومناط الوعيد ليس على المشخص وأنما على الوصف الذى استحق به ذلك. إذن فذلك الوعيد إنما يأتى لمن اتصف بذلك الوصف ولو كان غير ذلك الشخص.

ولذلك القرآن لما يعرض قصة أهل الكهف مثلًا، يبحث العلماء بحثًا طويلًا يقولون: ما اسمهم؟ الأول بحثوا فى العدد. وبعدين بحثوا فى الأسماء. وبعدين بحثوا الزمن الذى كانوا فيه. وبعدين بحثوا المكان الذى كانوا فيه. لدرجة أنهم جاءوا لكلبهم باسم يعنى عرفوا اسم كلبهم. واحتالوا فخرجوا عن مطلوب النص. لماذا؟ لأن القصة لو أنها وردت فى شخصين بذواتهم فلان وفلان وفلان، ووردت مشخصة بزمانها، ووردت مشخصة بمكانها لقدح ذلك فى سياق القصة. لماذا؟ لأن الحق يعرض علينا قصصًا نموذجيًا. ماذا يعنى؟ قصص منهج الحق، يعنى حتى لو كانوا قليلين، لا تمنع قلتهم من أن يقوموا أمام دعوة الباطل ويظلون متمسكين بالحق، بأى اسم، بأى عدد، فى أى زمان، فى أى مكان. إذن الذى يريد أن يحدد مفهوم القصة بأشخاص، أو يحددها بزمان، أو يحددها بمكان، يقدح فى مطلوب القصة من الله، لأن الله ينصبها مثلًا للفتوة الإيمانية، التى لا تبالى بأى أسماء فى أى مكان، فى أى زمان فلو أنها حددت بأشخاص لقالوا: أن هؤلاء الأشخاص كانت لهم طبيعة خاصة. يبقى غيرهم

لا يستطيع أن يعمل عملهم. أن خصصها بزمن: يقولون: الزمن كانت ظروفه تسمح. أن خصصها بمكان: يقولون: أن هذا المكان كان فى ذلك الوقت ممكن يقولوا.. يبقى إذن تشخيصها فى أشخاصها، فى أعدادها، فى أزمنتها، فى أمكنتها يقدح فى مطلوب القصة. ولكن حينما يذكر فى القصة المناط فقط، وهو الفتوة الإيمانية بأى عدد كانت بأى أسماء سميت، فى أى مكان، وفى أى زمان. أنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم «هذا هو المطلوب» إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهًا لقد قلنا أذن شططا) هذا هو الوصف.

يبقى إذا رأيت قصة لها سبب من أسباب النزول فلا تعتقد أن السبب هو المنزل. ولكن السبب هو المنهج لانطلاق المبدأ. كما تحدث حادثة فردية فى شىء، فيقنن من أجلها قانون فالقانون ليس خاصًا بالشخص، ولكن القانون فى مثل من وجد فى ظروف هذه القضية.

يبقى «ويل لكل همزة لمزة» إن كانت جاءت لواحد فكيف يأتى الحق بالتعميم فيقول «ويل لكل همزة» إذن المسألة انتقلت من شخص هو سبب فى نزول القانون، إلى عموم مشخص لوجود القصة، وهو من توجد فيه هذه الصفة. فقال الحق «ويل لكل همزة لمزة الذى جمع مالًا وعدده يحسب أن ماله أخلده» يعنى يظن أن ماله يعطيه الخلد طويلًا، وذلك فهم يبعده واقع الحياة، لم يظن أحد أنه يخلد، بل كلنا كما قلنا معتقدين بأننا سنموت، فلعل المراد «يحسب أن ماله أخلده» يعنى أنه بلغ من قوة التبديل فى أنه يبقى لنفسه ذلك المال» يحسب أن ماله أخلده» يعنى يستطيع أن يفعل فيه فعلًا يجعل المال لا عرضًا، لأن المال مصيبته أنه عرض يجىء ويذهب. أنه يريد أن ينقل المال والغنى لا إلى عرض، إلى صفة لازمة، وهذا غير موجود أبدًا فى الوجود، لأنه عارية دائمًا، يأتى مرة، ويذهب مرة.

«يحسب أن ماله أخلده» ما دام «يحسب أن ماله أخلده» يعنى سيظل هكذا، فتعطى له طبيعة فسادة القلب. لماذا؟ لأن الذى يجعل القلب يسخو، ويجعل القلب يخرج من شحه ما هو؟ الإنسان فى الأول قد يعمل لأنها من مأمورات الله، وقد يعملها مظنة أنه ربما يحتاج مرة فيجد من يحسن إليه. وما دام هذا ذاهب وجائل، المال يبقى لما

يكون الإنسان.. لكن لما يعتقد أن ماله هذا لن يذهب منه، تظل معه قساوته، ويظل معه شحه.

«يحسب أن ماله أخلده» على طبيعة القرآن فى علاج المسائل قال «كلا» يعنى زجرًا عما يحسبه، وعما يظنه فى أن ماله أخلده. يعنى ماله ترك له أن يعيش على الرأى الأول أو أن ماله سيبقى معه على الرأى الثانى. ولذلك قيل لإنسان: لقد جمع فلان مالًا كثيرًا قال: أو جمع العمر الذى ينفقه فيه؟ يبقى إذن الإنسان مهددًا من ناحيتين: من ناحية أن يبقى المال وهو لا يبقى، ومن ناحية أنه يبقى والمال لا يبقى. إذن فالجهتان الاثنان فيهما تطبيقات واقعة لا تجعل الإنسان يطمئن. فقال «كلا».

وبعد ذلك عرض الحق النهاية التى تناسب البداية. لأنه قال هناك «ويل» وويل أخذناها بتعبير الله، وأخذناها بقدرة الله على إنفاذ وعيده وأن عبده لا يفلت منه. قال: «كلا لينبذن فى الحطمة» كلمة النبذ ما معناها؟ نبذت الشىء أول ما توحى كلمة النبذ فى تعبيرها الاحتقار والمهانة. أنا نبذت الشىء الفلانى. وذلك رد طبيعى على استهلال السورة[1] مقولة «همزة لمزة» لأنه كان يهمز ويلمز امتهانًا، واحتقارًا، واستخفافًا. فتبقى تجىء أول حكاية من جنس ما قدم. «كلا لينبذن» وليته ينبذ ويكون حظه فقط الطرد من الحضرة، أو من النعيم؟ لا.. انظر إلى أين ينبذ.. يبقى نبذ وفى «الحطمة» الحطمة هذه أول ما توحى مثل همزة تمامًا. قلنا همزة الذى يجىء منه الهمز كثيرًا، وحطمة معناها أنها تحطم، وتحطيمها قوى. لأن هذا يناسب التجميع «الذى جمع مالًا وعدده» يبقى المسألة ليست تفريق مال أنما ستحطمه. يبقى إذن «لينبذن» ناسبت «همزة لمزة» وبعد ذلك «الحطمة» ناسب الجمع.

«لينبذن فى الحطمة. وما أدراك ما الحطمة» إياك أن تظن الحطمة أيضًا على المعنى فى كل ما أدراك، إياك أن تظن أن الحطمة هذه الشىء الذى يحطم الشىء؟ لا. هذا مدلولها اللغوى، أنما هذه لها مدلول آخر. «وما أدراك ما الحطمة. نار الله الموقدة» ليس مطلق نار. ليست نار زيد أو عبيد أو نار فلان وفلان. هل كل واحد له نار؟ نعم إذا أسندت إلى «نار الله» يبقى هذا دليل على أنها تأخذ ماذا؟ تأخذ وصفًا مناسبًا. لأن

(١) فى الأصل: السدرة.

لما رسول الله ﷺ دعا على ابن أبى جهل وقال: (أكله كلب من كلاب الله) فأكله سبع. فقالوا: النبى قال: كلب من كلاب الله. قال أنما هو أضيف فقال: كلاب الله. وهذا لازم يكون سبعًا وليس كلبًا.

فإذا قال: «نار الله الموقدة» المسألة انتهت، وما دام «نار الله» يبقى ليس لأحد من خلق الله أن يحجزها لأن نار فلان يمكن يجىء فلان أقوى منه فيطفئها. تبقى «نار الله» ليس فى مقدور أحد أنه يطفئها. وليس فى مقدور أحد أن يدفع عنها المعذب بها.

«نار الله الموقدة» أن النار من طبيعتها مشتعلة؟ تأكيد[1] لاشتغالها، وتأكيد لتأججها «نار الله الموقدة» التى تطلع على الأفئدة «انظر التعبير فى» تطلع على ما معنى ذلك، يعنى تظل تعمل فيها إلى أن تصل إلى لبه، إلى قلبه. لماذا لقلبه؟ فكأن النار مميزة يعنى جزائية مميزة فتطلع على القلب. فما كان موجودًا فى القلب تعطى له من اللذع على قدر ما فيه. «تطلع على الأفئدة. أنها عليهم مؤصدة» يعنى لا فكرة فى الفرار «فى عمد ممددة» يعنى عمد طويلة مربوطة. يبقى إذن نار الله، وموقدة وطبيعتها أنها تطلع على الأفئدة، يعنى تتغلغل «إنها عليهم مؤصدة «فلا منجى» فى عمد ممددة» لافرار منها، ولا انقلاب أبدًا. يبقى ذلك هو الجزاء الذى يناله «الذى جمع مالًا وعدده» والهمزة واللمزة، وتجد أن كل وصف فى العذاب يناسب وصفًا فى الذنب.

والله سبحانه وتعالى يتولانا، ويرعانا، ويباعد بيننا وبين هذه الصفات، حتى نكون أهلا لرحمته، وأهلًا لمحبته، وأهلًا لرضاه، وأهلًا لجنته، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[2].

---

(١) فى الأصل: تأكد.

(٢) لقد فسر الشيخ الشعراوى سورتى العصر والهمزة فى لقاءات مع ضباط وجنود القوات المسلحة. ونشرته إدارة المطبوعات والنشر للقوات المسلحة بتاريخ ١٤ من ؟؟؟؟ الثانى ١٣٩٩هـ.

بطاقة حياة الشيخ / محمد متولى الشعراوى

[١٣٢٩ ـ ١٤١٩ هـ ـ ١٩١١ ـ ١٩٩٨م]

فى المأثور الإسلامى، الذى بلغ مبلغ الحكمة: «إن ألسنة الخلق هى أقلام الحق».

وعندما ننظر إلى مئات الملايين من أبناء الأمة الإسلامية، على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام، وخارج عالم الإسلام، وكيف اجتمعت قلوبها، وتعلقت عقولها، وارتبطت أفكارها بشيخنا الراحل ـ شيخ العصر وإمام الزمان ـ الشيخ محمد متولى الشعراوى [١٣٢٩ ـ ١٤١٩هـ / ١٩١١ ـ ١٩٩٨م] نقول ـ مع المأثور الإسلامى دون أن نزكى على الله أحدًا: نعم، «إن ألسنة الخلق هى أقلام الحق»، ناهيك أننا ـ فى حالة الشيخ «الشعراوى» ـ لسنا بإزاء الألسنة وحدها، وإنما بإزاء الألسنة الناطقة بما فى القلوب والعقول، فهذا رجل ندر أن اجتمعت وأجمعت على داعية سواه هذه المئات من الملايين، فهو لم يكن ـ ككثيرين من عظماء علماء الأمة ـ مفكر نخبة أو فيلسوف صفوة، وإنما كان داعية أمة، تعلقت به الجماهير كما لم تتعلق بداعية فى عصرنا الحديث وواقعنا المعاصر..

وفى المأثور الإسلامى أيضًا ـ أن «الحسن البصرى» [٢١ ـ ١٠٠هـ / ٦٤٢ ـ ٧٢٨م] ـ وكان إمام عصره ـ الذى رضع فى بيت النبوة، ورأت أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنه فى قراءته للقرآن ـ يشبه قراءة الأنبياء ـ أن الحسن البصرى هذا قد سمع موعظة واعظ، فلم تؤثر فيه، فسأله:

ـ يا أخى، أبقلبك مرض أم بقلبى؟!

ذلك أن فارقًا كبيرًا بين العالم الذى ينثر المعلومات، حتى لكأنه «بنك معلومات»، وبين العالم ـ صاحب العلم النافع ـ الذى يعيش علمه، والذى صاغ العلم قلبه

ووجدانه، حتى إذا خرجت الموعظة من فمه، وجدت القنوات مفتوحة أمامها إلى القلوب، تستقر فيها، وتعيد صياغتها من جديد.

ومن هذا القبيل كان الشيخ «الشعراوى» ـ رحمه الله ـ فحصيلته من أسرار البلاغة على وفرتها، هى معلومة مشهورة ومبذولة فى كتب التراث، لكن هذه المعلومات قد صاغت قلبه، فجعلته قلبًا نورانيًّا، فلما قرأ القرآن فى ضوء هذا النور القلبى إذا به يكتشف من أسرار التركيب القرآنى والإعجاز البيانى للوحى الإلهى ما يمر عليه الحفاظ والقراء صباح مساء دون أن يكتشفوه، لذلك بهر «الشعراوى» الأمة بالقرآن الكريم كما لم يبهرها داعية فى العصر الحديث، لأنه كان قلبًا متوقدًا، وفؤادًا حيًّا، وعقلًا واعيًّا، وإنسانًا صالحًا، ولم يكن «بنك معلومات».

ولقد شاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن ينجز الرجل ما أنجز عندما علا صوت الفكر المادى والإلحادى، مهددًا بإحداث فتنة فى الدين والتدين والإيمان الدينى، فكانت رسالته الدعوية اصطفاءً إلهيًّا، ولبنة فى البناء الإسلامى الخالد على مر التاريخ.

* ولد الشيخ الشعراوى بقرية «دقادوس» ـ مركز ميت غمر ـ محافظة الدقهلية ـ بدلتا النيل ـ فى ١٥ من ربيع الآخر سنة ١٣٢٩هـ ١٥ من إبريل سنة ١٩١١م.

* وأتم حفظ القرآن الكريم ـ بكتَّاب القرية ـ وهو فى العاشرة من عمره.. وأتم تجويده وهو فى الخامسة عشرة من عمره..

* والتحق بمعهد الزقازيق الابتدائى سنة ١٣٤٥هـ سنة ١٩٢٦م.. ثم بالقسم الثانوى، بذات المعهد، سنة ١٣٥١هـ سنة ١٩٣٢م.

* ونال شهادة العالمية من كلية اللغة العربية سنة ١٣٦٠هـ سنة ١٩٤١م.. وحصل على إجازة التدريس سنة ١٣٦٢هـ سنة ١٩٤٣م.

* وفى مراحل طلبه للعلم، كان خطيبًا مفوهًا، وزعيمًا طلابيًّا، حتى إنه رأس اتحاد الطلاب وهو فى المرحلة الابتدائية الأزهرية، وبسبب نشاطه السياسى، وانتمائه لحزب الوفد، ومشاركته مع الطلاب فى الحراك الوطنى، لوحق، وتعرض للسجن والاعتقال أكثر من مرة.

* وعقب تخرجه، عمل مدرسًا بالمعهد الأحمدى الدينى بطنطا.. ثم انتقل للتدريس بمعهد الإسكندرية الدينى.. ثم إلى التدريس بمعهد الزقازيق.. ثم عين وكيلًا لمعهد طنطا سنة ١٣٧٩هـ سنة ١٩٦٠م.. ثم مديرًا للدعوة بوزارة الأوقاف سنة ١٣٨٠هـ سنة ١٩٦١م.. ومفتشًا للعلوم العربية بالأزهر سنة ١٣٨١هـ سنة ١٩٦٢م.. ثم مديرًا لمكتب شيخ الأزهر ـ الشيخ حسن مأمون [١٣١٢ ـ ١٣٩٣هـ / ١٨٩٤ ـ ١٩٧٣م] سنة ١٣٨٣هـ سنة ١٩٦٤م.. ثم مديرًا عامًا لمكتب وزير شئون الأزهر سنة ١٣٩٥هـ سنة ١٩٧٥م.. ووزيرًا للأوقاف وشئون الأزهر [١٩٧٦ ـ ١٩٧٨م].

* وفى خارج مصر: أعير للعمل مدرسًا بكلية الشريعة ـ جامعة الملك عبد العزيز آل سعود ـ بمكة المكرمة ـ سنة ١٣٦٩هـ سنة ١٩٥٠م..

ورأس البعثة الأزهرية بالجزائر سنة ١٣٨٥هـ سنة ١٩٦٦م..

ثم عمل أستاذًا زائرًا بجامعة الملك عبد العزيز آل سعود سنة ١٣٩٠هـ سنة ١٩٧٠م.. ورأس قسم الدراسات العليا سنة ١٣٩٢هـ سنة ١٩٧٢م.. واختارته رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة ـ عضوًا بالهيئة التأسيسية لمؤتمر الإعجاز العلمى للقرآن الكريم.

* ونال عضوية مجمع البحوث الإسلامية ـ بالأزهر الشريف سنة ١٤٠٨هـ سنة ١٩٨٠م.. كما نال عضوية مجمع اللغة العربية سنة ١٤٠٨هـ سنة ١٩٨٨م.. وعضوية مجلس الشورى سنة ١٤٠٨هـ سنة ١٩٨٨م.

* ومنح وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى بمناسبة بلوغه سن التقاعد، وتفرغه للدعوة، سنة ١٣٩٦هـ سنة ١٩٧٦م.. وحصل على جائزة الدولة التقديرية سنة ١٤٠٨هـ سنة ١٩٨٨م.. كما حصل على الدكتوراه الفخرية من جامعة المنصورة سنة ١٤١٠هـ سنة ١٩٩٠م.. وعلى جائزة دبى لشخصية العام سنة ١٤٢٠هـ سنة ١٩٩٨م.

* ورافق الرئيس محمد أنور السادات [١٣٣٧ ـ ١٤٠١هـ / ١٩١٨ ـ ١٩٨١م] فى زيارته للأمم المتحدة سنة ١٣٩٩هـ سنة ١٩٧٩م.. وخطب الجمعة وأم الناس فى أول جمعة أقيمت هناك.

* وطاف الكثير من ديار العالم الإسلامى، ومواطن الجاليات الإسلامية فى الغرب، داعيًّا إلى الله، وكاشفًا الشبهات عن الإسلام.. كما تناقلت أحاديثه وأماليه أجهزة البث ـ المسموعة والمرئية ـ ودور النشر فى مختلف بلاد المعمورة.

* لقد تميز الشيخ الشعراوى كمدرس للبلاغة.. وبرع فى إدراك أسرار الإعجاز القرآنى.. ودخل الإذاعة، لأول مرة، سنة ١٣٦٩هـ سنة ١٩٥٠م.. ثم بهر جماهير الأمة عندما أطل من شاشة التلفاز، فى عقد الستينيات من القرن العشرين، ببرنامج «نور على نور» ـ الذى كان يعده ويقدمه الأستاذ أحمد فراج [١٣٥٠ ـ ١٤٢٧هـ/ ١٩٣١ ـ ٢٠٠٦م] ـ وكان المناخ الفكرى ـ المحلى والعالمى ـ قد صعدت فيه جاذبية الفكر المادى، فكأنما كان الشيخ الشعراوى على موعد، إذ اجتذب جماهير غفيرة ـ عبر مصر والعالم ـ إلى القرآن الكريم والإيمان الدينى، على نحو جعله إمام الدعاة دونما منازع أو منافس، الأمر الذى جعله خصمًا عنيدًا وهدفًا لتطاول الماديين والزنادقة وغلاة العلمانيين.

* وإلى جانب عبقرية الدعوة، امتلك الشيخ الشعراوى ملكة الشعر، فكان له فيه عطاء وفير واكب قضايا الأمة الوطنية والدينية.

* وفى الدعوة، كان الإخلاص لله ورسوله ﷺ ولدينه وأمته.. مع المنطق.. وجدل العقل والنقل.. وحقائق العلوم.. وخبرات التاريخ.. وفقه الواقع.. ومقارنات الأديان.. وتراث الملل والنحل.. آليات حاضرة فى خواطر الشيخ وأماليه.. الأمر الذى فتح له عقول الخاصة والعامة، وقلوب الجماهير العريضة، على نحو ميزه عن كثيرين من الدعاة المعاصرين..

* ولقد انبهر به قطاع من أهل الثقافة الرفيعة، فسأله واحد منهم ـ الأستاذ الدكتور حسين مؤنس [١٣٢٩ ـ ١٤١٦هـ/ ١٩١١ ـ ١٩٩٦م] ـ فى حوار بمجلة (المصور):

ـ من أين لك كل هذا؟!.

فأجاب:

ـ إنه فيض جود، لا بذل مجهود!.

فعبر بذلك عن الإخلاص، والتواضع، والفتح الربانى الذى هيأه لحراسة التدين وتعميق الإيمان الدينى، فى مواجهة المادية والزندقة والإلحاد.

* لقد قدم الإسلام ـ فى الاجتماع والاقتصاد ـ بديلًا للرأسمالية والشيوعية كليهما.

* وقدم العقل سبيلًا لمعرفة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وتوحيده.. ومن ثم للخضوع لمنهاج الله الذى يتغيا سعادة الإنسان فى المعاش والمعاد..

* كما قدم الإسلام بديلًا وسطيًا بين غلو اليهود فى المادية وغلو النصارى فى المثالية.

* ولقد استطاع، بعبقرية فذة، أن يفتح عقول الجماهير العريضة لفلسفة الإيمان الدينى، على نحو عجز عنه كثير من الفلاسفة والمتكلمين.. فكان «جامعة علمية شعبية» انتقلت إلى الناس فى منازلهم ومنتدياتهم، فنافست مدارس الفلسفة وجامعات العلم وتفوقت عليها.

* ولقد لفت الأنظار إلى أن إعجاز القرآن الكريم لا يقف فقط عند الكلمة والآية والسورة، وإنما يشمل كل حرف من حروف هذا الذكر الحكيم.

* وغير ميدان الدعوة، كان الشيخ الشعراوى قلبًا كبيرًا فى ميدان الإحسان.. فله فى العمل الخيرى مآثر وعطاءات فرجت الكثير والكثير من كربات الفقراء والمحتاجين.

* وعندما انتقل إلى رحاب ربه فى ٢٢ صفر سنة ١٤١٩هـ ١٧ يونيو سنة ١٩٩٨م ودّعته الجماهير الغفيرة وداعًا غير مسبوق فى جنازات العلماء والزعماء.. ودفن فى قريته «دقادوس» ـ عليه رحمة الله.

ولقد شاء الله أن يجمعنى بالشيخ الشعراوى فى العقد الأخير من عمره.. ففى أوائل تسعينيات القرن العشرين دعوناه ـ مع عدد من كبار العلماء والمفكرين والدعاة ـ إلى وفد الوساطة بين الدولة وبين جماعات العنف ـ (الجهاد.. والجماعة الإسلامية).

* وبعد لقاءات عدة ـ بمنزل الشيخ.. ومضيفته بالسيدة نفيسة ـ رأيته يعلّق عليّ آمالًا كبيرة.. وخاصة بعد رحيل كوكبة من كبار علمائنا سنة ١٤١٦هـ سنة ١٩٩٦م

ـ حتى كان اللقاء بمجلس عزاء الراحل العظيم الشيخ جاد الحق على جاد الحق [١٣٣٥ ـ ١٤١٦هـ/ ١٩١٧ ـ ١٩٩٦م] ـ شيخ الأزهر ـ بميدان الحسين.. فعندما رآنى الشيخ الشعراوى.. وكان يتلقى العزاء ـ نهض واقفًا، وضمنى إلى صدره، ورفع يديه إلى السماء داعيًا:

ـ الله يجعل فيك العوض.. الله يجعل فيك العوض.. الله يجعل فيك العوض..

حتى لقد جلست فى العزاء، وكأن جبلًا ثقيلًا قد حط على كاهلى، من هذا التكليف الذى جسده هذا الدعاء!

هذا هو شيخ العصر وإمام الزمان ـ الشيخ محمد متولى الشعراوى ـ الذى خلّف لنا ـ مع السيرة العطرة، والقدوة الحسنة، آثارًا فكرية ـ هى أمالى جمعها المحبون والناشرون ـ بلغت عناوينها نحو الستين.. منها:

١ ـ خواطره حول القرآن الكريم ـ فى العديد من المجلدات.

٢ ـ كتاب الفتاوى الكبرى ـ فى عشرة مجلدات.

٣ ـ من نبض الرحمن فى معجزة القرآن ـ طبع بالإنجليزية فى المملكة العربية السعودية.

٤ ـ القضاء والقدر.

٥ ـ السحر.

٦ ـ الربا.

٧ ـ الرحلات.

٨ ـ الغيب.

٩ ـ قصص الأنبياء.

١٠ ـ قصص الحيوان فى القرآن الكريم.

١١ ـ معجزة القرآن.

١٢ ـ الإسراء والمعراج.

١٣ ـ ١٠٠ سؤال وجواب.

١٤ ـ محمد ﷺ.

١٥ ـ خطب الشعراوى.

١٦ ـ الخير والشر.

١٧ ـ المرأة فى القرآن الكريم.

١٨ ـ شبهات وأباطيل خصوم الإسلام والرد عليها.

١٩ ـ الحلال والحرام.

٢٠ ـ التربية الإسلامية.

٢١ ـ عقيدة المسلم.

٢٢ ـ المختار من تفسير القرآن الكريم.

٢٣ ـ الجهاد فى القرآن الكريم.

٢٤ ـ خطب الجمعة والعيدين.

٢٥ ـ ردًا على الملاحدة والعلمانيين.

وهو تراث لا يزال حيًّا وفاعلًا فى عقول الأمة وقلوبها، حتى الآن، وإلى أن يشاء الله.. رحم الله شيخ الدعاة وإمام الزمان ـ الشيخ محمد متولى الشعراوى ـ وألحقنا به فى الصالحين[1].

---

(١) (الموسوعة القومية للشخصيات المصرية البارزة) ج٢ ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة سنة ١٩٩٢م. (موسوعة الفلسفة والفلاسفة) د. عبد المنعم الحفنى جـ٢ ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة مدبولى القاهرة سنة ١٩٩٩م. (موسوعة أعلام الفكر الإسلامى) ـ أ.د. محمد رجب البيومى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة سنة ١٤٢٥ سنة ٢٠٠٤م. (الموسوعة العربية) ـ محمد هشام برهانى ـ دمشق سنة ٢٠٠٥م. (هذا إسلامنا: خلاصات الأفكار) د. محمد عمارة ـ دار الوفاء ـ المنصورة سنة ١٤٢١هـ سنة ٢٠٠٠م.

محاضرة

الإيمان بالله ضرورة لغوية وعقلية وحياتية

بين يدى هذه المحاضرة

فى حقبة السبعينيات ـ من القرن العشرين ـ برزت ظاهرة الصحوة الإسلامية، بادئة من طلاب الجامعات، ثم عمت مختلف الفئات والطبقات، حتى أصبحت أعظم ظواهر العصر الذى نعيش فيه.

ولقد برزت هذه الصحوة عقب هزيمة سنة ١٩٦٧م، التى لم تكن مجرد هزيمة عسكرية أمام الصهيونية المدعومة من الإمبريالية الغربية، وإنما كانت هزيمة لنماذج التحديث على النمط الغربى التى وفدت إلى بلادنا فى ركاب الغزوة الغربية الحديثة.. فعادت الأمة ـ بهذه الصحوة الإسلامية ـ إلى ذاتيتها وهويتها ومنهاجها الإسلامى فى التجديد والتقدم والنهوض..

ولقد استدعى شباب الصحوة الإسلامية صفوة العلماء يلتمسون على أيديهم العلم والفقه والفكر والثقافة والتوجيه.. وكان الشيخ الشعراوى فى مقدمة العلماء الذين احتضنوا هذه الصحوة الإسلامية وأسهموا فى تثقيف شبابها.. وكانت هذه المحاضرة ـ التى نقدم بين يديها ـ عن [الإيمان بوجود الله: ضرورة لغوية وعقلية وحياتية] ـ واحدة من المحاضرات التى ألقاها شيخنا الجليل على طلاب الجامعات وطالباتها..

ولقد شبه الشيخ ـ فى هذه المحاضرة ـ طلائع شباب هذه الصحوة بفتية أهل الكهف، الذين آمنوا بالحق، وسلكوا طريق الإصلاح بالإسلام.. وكان المنطق الإيمانى الذى ركز عليه الشيخ الشعراوى فى هذه المحاضرة ـ هو بداية الطريق لهؤلاء الفتية، الذين دعاهم الشيخ الشعراوى إلى أن يضموا إلى قدراتهم الفتية على

العمل فكر الشيوخ وحكمتهم حتى يكونوا ـ كما وصفهم القرآن ـ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ (المزمل: ٦)..

ولأن هذه المحاضرة قد ألقيت فى جمهور له حظ من الفكر والثقافة، فلقد تجلى فيها الشيخ الشعراوى فيلسوفًا من كبار فلاسفة الإيمان الدينى.. وذلك رغم «الارتجال» الذى طبع أغلب أسلوبه فى عطائه الفكرى والعلمى..

* وإذا نحن شئنا ـ فى هذا التقديم لهذه المحاضرة ـ أن نلقى بعض الأضواء على بعض محاورها الفكرية فإننا سنجد فيها حديثًا عن:

١ ـ أن الإيمان بالله هو ضرورة.. ضرورة عقلية.. وضرورة اجتماعية.. وضرورة سياسية.. بل وضرورة لغوية أيضًا.

وعن هذه الضرورة اللغوية ـ التى ربما كانت واحدة من إبداعات الشيخ الشعراوى قال إمام الدعاة وفيلسوف الإيمان: «إن المعنى يوجد أولًا، ثم يوضع له اللفظ ثانيًا.. فالمعانى توجد أولًا، ثم توجد لها الألفاظ»..

ونحن نقول لمن ينكر ذلك: قولوا لنا، بالله، من أين جاء لفظ الله فى لغة البشر؟.. إن كان الله أمرًا عدميًا لا وجود له.. والعدميات لا يوجد لها ألفاظ تدل عليها..

والأعجب من هذا، أنك تجد نظير ذلك اللفظ ـ [الله] ـ فى كل اللغات، فلا مفر أن يكون الأصل الأصيل فى الإنسان الأول قد علم الله، وقد عرف الله من أبيه آدم، ثم تنوقل ذلك، وبعد ذلك طرأ جحد الله على الناس.. لماذا؟.. لأن الناس ألفوا المُحَسَّ ولم يألفوا الغيب، والله غيب.

٢ ـ وأن كلمة الكفر نفسها دليل على الإيمان.. كيف ذلك؟..

لأن كفر ـ فى اللغة ـ معناها سَتَر، فكأن الكفر طرأ على شىء موجود ليستره.. فكلمة الكفر فى ذاتها تدل على الإيمان، وكأن الإيمان هو الأصل، الأصل المشهدى فى آدم، ثم نقله إلى بنيه..

إذن، فكلمة «الله» وكلمة «كفر» تدلان على الإيمان بالله.

٣ ـ والإيمان عزاء لنفس المؤمن..

ذلك أن المحروم من الإيمان حين تعز عليه الأسباب، لا يوجد له عزاء نفسى أبدًا، وذلك بخلاف المؤمن، فإنه يوجد له العزاء النفسى..

إن الإيمان يغير طبيعة وكيماوية النفس البشرية، والتاريخ يحدثنا أن «الخنساء» [٢٤هـ ـ ٦٤٥م] مات أخوها «صخر» ـ فى الجاهلية ـ فملأت الدنيا عليه بكاء وعويلًا حتى فقدت بصرها، وهو أخ لها وليس ابنًا.. وبعد ذلك أسلمت، وجاء لها خبر استشهاد أبنائها الأربعة فى معركة «القادسية» فى وقت واحد..

كان أخوها واحدًا، وهؤلاء أربعة فلذات أكبادها، فماذا قالت:

قالت: «الحمد لله الذى شرفنى باستشهادهم، وأسأله أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته».

ما هذا الشعور الذى دخل عليها؟. إنه عزاء بالإيمان، أعظم المصائب يهون أمرها أمامه. إذن، فالعزاء للإنسان فى كل أحداث الحياة أن يكون له إيمان، ولذلك يقول الصالحون: «لا كرب وأنت رب».. ما دام فيه رب لا يوجد كرب.

٤ ـ والعقل ـ فى التنوير الغربى الوضعى المادى العلمانى مطلق، لا سلطان عليه.. أما العقل ـ فى الرؤية الإسلامية ـ فهو نسبيّ الإدراك ـ ككل ملكات الإنسان.

لقد فتن العقل نفسه عندما لم يؤمن بما لا يدخل فى حيزه الفكرى..

ونحن نقول له: يا عقل، على رسلك. أنت وسيلة من وسائل الإدراك..

ونقول له: والعين وسيلة من الإدراك.. فيقول: نعم..

فنقول له: لماذا كان للعين مجال لترى؟.. لها قوانين لترى، فلماذا لا يكون لك أنت كذلك مجال لتفهم؟..

لماذا حددت مجال رؤية العين ومدى ما ترى.. وأردت أن تطلق أنك ترى كل شىء، فكل ما لا تراه لا وجود له؟!..

أنت فُتنت بنفسك إذا يا عقل عندما حسبت أنك تعقل كل شىء، إلا أنك ـ

للأسف ـ لم تعقل نفسك، وكان من الواجب أن يعقل العقل نفسه أولًا ليعرف أنه وسيلة ـ من وسائل الإدراك، وما دام وسيلة من وسائل الإدراك، وتوجد له نظائر.. وما دامت وسائل الإدراك محددة المدى، يكون عقلك أيضًا محدد المدى.. ولو أنك فهمت ذلك لكنت قد فهمت غاية الفهم، لأن الذى يفهم أن ذلك الشىء لا يُفْهَم قد فهم.. ولذلك يقول أهل المعرفة: إن العجز عن الإدراك إدراك.

إن ابتكار العقل لشيء أو اختراعه لشيء ليس شهادة على تفوقه، وإنما شهادة على عجزه، لأنه لو لم يعجز بالأمس لما اكتشف اليوم، وما دام قد عجز بالأمس فإنه عاجز اليوم أيضًا. ولو أن العقل بطبيعته قادر على أن يستوعب طبائع الأشياء كلها لكان العقل الأول بمجرد وجوده فى الرأس قد انتهى إلى كل قضايا الوجود فهمًا، ولكن الوجود لا يعطيه إلا بقدر ما تسمح به ظروفه، وما يشاء الله من أجل لإبراز حقائق الكون.

ولنا أن نتساءل:

ماذا أعد الله فى الكون للعقل فى القرن الثلاثين؟

لا بد أنه أعد أشياء لتكون موضوع العقل فى القرن الثلاثين، وإلا فلو كانت الأشياء فى الكون اكتشفها العقل مرة واحدة، ستكون الحياة مكررة.. فتعطينا صورة تافهة للوجود، ولأننا فى هذه الحالة استطعنا بعقولنا أن نستقصى أسرار الله مقدمًا.. ولكن أسرار الله لا تنتهى حتى يأذن الله للأرض أن تزول ومعها وليدها المغرور!..

إننا لو وقفنا عند تعقل الشىء لاتفقنا، ولكن اختلفنا لأننا حاولنا تجاوز منطقة التعقل إلى منطقة التصور.. فمثلًا إذا حدثونا أن الصوت له نصف مليون ذبذبة فى الثانية.. هذا أمر يُعقل.. ولكن لا يستطيع العقل أن يتصوره، لأن دقة الموازين هى التى تتعب الناس..

إن الفرق بين تعقل شىء وتصوره، هى المسألة التى أتعبت الفلاسفة فى الإيمان بالله، فلم يكتفوا بتعقل وجود الإله، ولكن أرادوا أن يتصوروا ذلك الإله، فأتعبهم ذلك..

إذا كنا، فى هذا المكان، وأغلقنا الأبواب والنوافذ، ثم دق الجرس.. هنا نعقل أن طارقًا بالباب، وكلنا نتفق فى هذا التعقل.. فإذا اتفقنا ندخل فى منطقة التصور، وذلك يدخلنا فى «متاهات».. واحد يقول: هو رجل. وواحد يقول: امرأة، وواحد يقول: طفل صغير.. وهكذا..

فمنطقة التصور هى منطقة الاختلاف، فلو أننا اكتفينا بالتعقل، وتركنا الطارق بالباب ليدلنا على «من هو»، لالتقينا..

لقد أرهقنا الفلاسفة بآرائهم وأفكارهم فيما وراء المادة ـ الميتافيزيقا ـ دون أن يصلوا إلى حقيقة ما.. فلم تتفق مدرسة من مدارسهم مع مدرسة أخرى، ولا تلاميذ مدرسة مع تلاميذ مدرسة واحدة، واختلفوا مع أنفسهم فيما ذهبوا إليه فيما وراء الطبيعة، لأن العقل يستقبل من الماديات ليستنبط منها، وأما ما غاب عنه فلا يمكن أن يصل إلى شىء فيه.

إن الصنعة لا تدرك أبدًا من صنعها.. وهذا الكوب ـ [الصنعة] ـ لا يدرك من صنعه.. وقس على نفسك، أنت صنعة الله، إذا أنت لا تستطيع أن تدرك الله، ولو أدركته لما كان يصلح أن يكون إلهًا. لماذا؟

إننا إذا أعطينا الولد مسألة هندسية.. وحلها، قلنا: دخلت فى مقدور عقله، يعنى أصبح عقله قادرًا عليها، فأنت إذا أدركت الحق الخالق انقلب القادر مقدورًا والمقدور قادرًا. ولا ينقلب المقدور قادرًا ولا القادر مقدورًا أبدًا، إذا فمن عظمة ربك أنك لا تدركه.

كذلك.. الضوء لا يُرى، ولكن إذا وجدت ذرات غبار يُرَى، فعندما نقول لك إن الله لا يُرى، وإنما يُرىَ فى صنعته، يبقى هذا الكلام سليمًا، وكلام علمى، وكلام منطقى.

٥ ـ والمنطق العقلى فى العدالة والقيم ـ يزكى الإيمان بالحساب والجزاء الأخروى..

وذلك أن الذين يسرفون على أنفسهم ويهلكون المجتمعات بانحرافهم ويسومون

المجتمعات سوء العذاب ـ هؤلاء لو أن الحياة هذه هى كل شىء، ماذا كان المدخر لمثل هؤلاء ليحاسبوا على ما قدموا من انحرافات ومظالم ومتاعب؟ فلو أن هذه الحياة نهائية ولا حياة بعدها، إذا فقد كسب المنحرفون الذين اطلقوا لشهواتهم العنان فى أعراض الناس ودمائهم وأموالهم، هؤلاء قد أخذوا حظهم وأخذوا متعتهم فى الحياة، وهى هذه الحياة.

إذا فما أشقى الذين التزموا بمبادئ الحق ومناهج الخير.. كل هؤلاء ما أشقاهم، لأنهم أمتعوا غيرهم وظلوا محرومين فى حياة هى هذه الحياة ولا حياة بعدها.

فمنطق العقل، إذا مجردًا عن الدين، يوجب أن نؤمن بأن وراء هذه الحياة حياة.. يجازى فيها الإنسان بإحسانه ويعاقب فيها الإنسان على سيئاته.. ولو لم يكن كذلك لهان أمر القيم وهان أمر المبادئ الحقة وهانت أوامر الخير.

٦ ـ وأما عن الغيب.. فيجب أن نعلم أن هناك فرقًا قويًا بين غيب وصنع الله له فى الكون مقدمات، وبين غيب آخر لم يصنع الله له فى الكون مقدمات..

أما الغيب الذى لم يجعل الله له فى الكون مقدمات فذلك غيب «مُفاض» من الحق على بعض الخلق، ولذلك قصره على نفسه فقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ (الجن: ٢٦). إذًا فالذهن البشرى حين يعمل طاقته فى ملاحظة ظواهر الكون يستطيع أن يستنبط الظواهر الكثيرة استنباطه للأشياء الكثيرة التى كانت غيبًا على العقول حتى الآن.

إن ما غاب عن حسه وإدراكه يجب ألا يحكم بأنه معدوم، بل يجب أن يقول إن وسيلة إدراكه لم تصل إليه، ويجب أن يأخذ من ذلك بمقدمات بعين المادة التى يتكلم فيها. فمثلًا الميكروب قبل أن يُكتشف، عدم إدراكنا لا يعنى أنه غير موجود، بل هو موجود، ولكن وسائل إدراكنا للميكروب لم تكن موجودة، وحينما شاء الله أن ينجز بنشاطنا الذهنى وسائل تطلعنا على هذا الغيب، وهو الميكروب.. عرفناه، وفقد صفة الغيبية..

٧ ـ والقرآن الكريم واحد.. لكن المستقبلين له أنواع..

فهناك القابل الذى يستقبل القرآن على أنه منهج الله الذى يشفيه.. وهناك القارئ